

﴿ سورة الحديد ﴾

أخرج جماعة عن ابن عباس أنها نزلت بالمدينة، وقال النقاش . وغيره : هي مدنية باجماع المفسرين ولم يسلم له، فقد قال قوم: إنها مكية ، نعم الجمهور - كما قال ابن الفرس - على ذلك .

وقال ابن عطية : لا خلاف ان فيها قرآنا مديناً لكن يشبه أن يكون صدرها مكيّاً ، ويشهد لهذا ما أخرجه البزار في مسنده . والطبراني . وابن مردويه . وأبو نعيم في الحلية . والبيهقي . وابن عساكر عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه دخل على أخته قبل أن يسلم فاذا صحيفة فيها أول سورة الحديد فقرأه حتى بلغ (آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) فأسلم ، ويشهد لمكية آيات أخر ما أخرج مسلم . والنسائي . وابن ماجه . وغيرهم عن ابن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله تعالى بهذه الآية (ألم يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) إلا أربع سنين ، وأخرج الطبراني . والحاكم وصححه وغيرهما عن عبد الله بن الزبير أن ابن مسعود أخبره أنه لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية يعاتبهم الله تعالى بها إلا أربع سنين (ولا تكونوا كالَّذِينَ أَوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ) الآية لكن سيأتي إن شاء الله تعالى آثار تدل على مدنية ما ذكر ولعلها لا تصلح للمعارضة .

ونزلت يوم الثلاثاء على ما أخرج الديلمي عن جابر مرفوعاً لا تحتجموا يوم الثلاثاء فإن سورة الحديد أنزلت على يوم الثلاثاء وفيه أيضاً خبر رواه الطبراني . وابن مردويه عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما بسند ضعيف ، وهي تسع وعشرون آية في العراق ، وثمان وعشرون في غيره ، ووجه اتصالها - بالواقعة - أنها بدئت بذكر المسيح وتلك ختمت بالأمريه ، وكان أولها واقعاً موقع العلة للآمر به فكأنه قيل : (سبح باسم ربك العظيم) لانه سبحانه له ما في السموات والارض ، وجاء في فضلها مع أخواتها ما أخرجه الإمام أحمد . وأبو داود . والترمذي وحسنه . والنسائي . وابن مردويه . والبيهقي في شعب الإيمان عن عرابض بن سارية « أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ، وقال : إن فيهن آية أفضل من ألف آية » وأخرج ابن الضريس نحوه عن يحيى بن أبي كثير ثم قال : قال يحيى : نراها الآية التي في آخر الحشر .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ التسييح على المشهور تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولاً وعملاً عما لا يليق بجناحه سبحانه من سبح في الارض والماء إذا ذهب وأبعد فيهما ، وحيث أسند ههنا إلى غير العقلاء أيضاً فإن ما في السموات والارض يعم جميع ما فيهما سواء كان مستقراً فيهما أو جزءاً منهما بل المراد بما فيهما الموجودات فيكون أظهر في تناول السموات والارض ويتناول أيضاً الموجودات المجردة عند القائل بها ، قال الجمهور : المراد به معنى عام مجازي شامل لما نطق به لسان المقال كتسييح الملائكة والمؤمنين من الثقلين ، ولسان الحال كتسييح غيرهم فإن كل فرد من أفراد الموجودات يدل بإمكانه وحدوثه على الصانع القديم الواجب الوجود المتصف بكل كمال المنزه عن كل نقص ، وذهب بعض إلى أن التسييح على حقيقته المعروفة في الجميع وهو مبنى على ثبوت النفوس الناطقة والادراك لسائر الحيوانات والجمادات على ما يليق بكل ، وقد صرح به جمع من الصوفية فتسييح كل شئ عندهم قائل وإن تفاوت الامر ، وقيل : معنى سبح حمل رائيهِ العاقل على قول سبحانه الله تعالى ونبيه عليه وهو كما ترى ، ومن يجوز استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه معا لا يحتاج إلى

عموم المجاز ، وجوز الطبرسي كون (ما) للعالم فقط مثلها في قول أهل الحجاز كما حكى أبو زيد عند سماع الرعد - سبحان (ما) سبحته - ولا يخفى أن عمومها العالم وغيره أولى ، والظاهر أنها في الوجهين موصولة ، وقال بعضهم : إنها نكرة موصوفة وأن أصل الكلام ما في السموات وما في الأرض ثم حذفت (ما) الثانية وأقيمت صفتها مقامها ، ولا يحسن أن تكون موصولة لأن الصلة لا تقوم مقام الموصول عند البصريين وتقوم الصفة مقام الموصوف عند الجميع ، والحمل على المتفق عليه أولى من الحمل على المختلف فيه وكون المذكورة موصولة والمحدوفة نكرة موصوفة مما لا رجة له انتهى .

وأنت تعلم أن حذف الموصول الصريح في مثل ذلك أكثر من أن يحصى وجيء باللام مع أن التسبيح متعد بنفسه كما في قوله تعالى : (و تسبحوه) للتأكيدها فهي مزيدة لذلك كما في نصحتها وشكرت له ، وقيل : للتعليل والفعل منزل منزلة اللازم أي فعل التسبيح وأوقعه لأجل الله تعالى وخالصاً لوجهه سبحانه ، وفيه شئ لا يخفى ، وعبر بالماضي هنا وفي بعض الأخوات وبالمضارع في البعض الآخر إيداناً بتحقيق التسبيح في جميع الأوقات ، وفي كل دلالة على أن من شأن ما أسند إليه التسبيح أن يسبحه وذلك هجيراً وديدنه ، أما دلالة المضارع عليه فللدلالة على الاستمرار إلى زمان الاخبار وكذلك فيما يأتي من الزمان لعموم المعنى المقضى للتسبيح وصلاح اللفظ لذلك حيث جرد عن الدلالة على الزمان وأثر على الاسم دلالة على تجدد تسبيح غيب تسبيح ، وأما دلالة الماضي فالتجرد عن الزمان أيضاً مع التحقيق الذي هو مقتضاه فيشمل الماضي من الزمان ومستقبله كذلك ، وقيل : الإيدان والدلالة على الاستمرار مستفادان من مجموعي الماضي والمضارع حيث دل الماضي على الاستمرار إلى زمان الاخبار والمضارع على الاستمرار في الحال والاستقبال فشملهما جميع الأزمنة ، وقال الطيبي : افتتحت بعض السور بلفظ المصدر وبعض بالماضي وبعض بالمضارع وبعض بالامر فاستوعب جميع جهات هذه الكلمة إعلماً بأن المكونات من لدن إخراجها من العدم إلى الوجود إلى الأبد مسبحة مقدسة لذاته سبحانه وتعالى قولاً وفعلاً طوعاً وكرهاً (وإن من شئ إلا يسبح بحمده) (وَهُوَ الْعَزِيزُ) القادر الغالب الذي لا ينازعه ولا يمانعه شئ (الْحَكِيمُ ١) الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصاحبة ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله مشعر بعلّة الحكم ، وكذا قوله تعالى : (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي التصرف الكلي فيهما وفيما فيهما من الموجودات من حيث الإيجاد والاعدام وسائر التصرفات ، وقوله سبحانه : (يُحْيِي وَيُمِيتُ) أي يفعل الأحياء والإماتة استئناف مبين لبعض أحكام الملك وإذا جعل خبر مبتدأ محذوف أي هو يحيي ويميت كانت تلك الجملة كذلك وجعله حالاً من ضمير له يومهم تقييد اختصاص الملك بهذه الحال ، وقوله تعالى :

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢) من الأشياء التي من جملتها ما ذكر من الإحياء والإماتة (قَدِيرٌ ٢) مبالغ في القدرة تذييل وتكميل لما قبله (هُوَ الْأَوَّلُ) السابق على جميع الموجودات فهو سبحانه موجود قبل كل شئ حتى الزمان لأنه جل وعلا الموجد والمحدث للموجودات (وَالْآخِرُ) الباقي بعد فنائها حقيقة أو نظراً إلى ذاتها مع قطع النظر عن مبقياها فان جميع الموجودات الممكنة إذا قطع النظر عن علتها فهي فانية . ومن هنا قال ابن سينا : الممكن في حده ذاته ليس وهو عن علته أيس فلا ينافي هذا كون بعض

الموجودات الممكنة لا تنفي كالجنة والنار ومن فيهما كما هو مقرر مبين بالآيات والاحاديث لأن فناءها في حد ذاتها أمر لا ينفك عنها، وقد يقال: فناء كل ممكن بالفعل ليس بمشاهد، والذي يدل عليه الدليل إنما هو إمكانه فالبعدية في مثله بحسب التصور والتقدير، وقيل: هو الأول الذي تبدى منه الأسباب إذ هو سبحانه مسببها (والآخر) الذي تنتهي إليه المسببات فالأولية ذاتية والآخرية بمعنى أنه تعالى إليه المرجع والمصير بقطع النظر عن البقاء الثابت بالأدلة، وقيل: الأول خارجاً لأنه تعالى أوجد الأشياء فهو سبحانه متقدم عليها في نفس الأمر الخارجى والآخر ذهنياً وبحسب التعلق لأنه عز شأنه يستدل عليه بالموجودات الدالة على الصانع القديم كما قيل: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله تعالى بعده، وقال حجة الاسلام الغزالي: إن الأول يكون أولاً بالاضافة إلى شئ، والآخر يكون آخراً بالاضافة إلى شئ، وهما متناقضان فلا يتصور أن يكون الشئ الواحد من وجه واحد بالاضافة إلى شئ واحد أولاً وآخر جميعاً بل إذا نظرت إلى ترتيب الوجود ولا حظت سلسلة الموجودات المترتبة فالتعالى بالاضافة إليها أول إذ كلها استفادات الوجود منه سبحانه وأما هو عز وجل فوجود بذاته وما استفاد الوجود من غيره سبحانه وتعالى عن ذلك، ومهما نظرت إلى ترتيب السلوك ولا حظت منازل السالكين فهو تعالى آخر إذ هو آخر ما ترتقى إليه درجات العارفين وكل معرفة تحصل قبل معرفته تعالى فهي مرقاة إلى معرفته جل وعلا، والمنزل الأقصى هو معرفة الله جل جلاله فهو سبحانه بالاضافة إلى السلوك آخر وبالاضافة إلى الوجود أول فمنه عز شأنه المبدأ أولاً واليه سبحانه والمرجع والمصير آخر انتهى*

والظاهر أن كونه تعالى أولاً وآخر بالانسبة إلى الموجودات أولى ولعل ما ذكره أوفق بمشرب القوم. ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ أى بوجوده لأن كل الموجودات بظهوره تعالى ظاهر ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ بكنهه سبحانه فلا تحوم حوله العقول، وقال حجة الاسلام: هذان الوصفان من المضافات فلا يكون الشئ ظاهراً لشيء وباطناً له من وجه واحد بل يكون ظاهراً من وجه بالاضافة إلى إدراك وباطناً من وجه آخر فإن الظهور والباطن إنما يكون بالاضافة إلى الادراكات والله تعالى باطن إن طلب من إدراك الحواس وخزانة الخيال ظاهر إن طلب من خزانة العقل بالاستدلال والريب من شدة الظهور وكل ما جاوز الحد انعكس إلى الضد، وإلى تفسير الباطن بغير المدرك بالحواس ذهب الزمخشري، ثم قال: إن الواو الأولى لعطف المفرد على المفرد فتفيد أنه تعالى الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية والآخرية أيضاً كذلك فتفيد أنه تعالى الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فاعطف المركب على المركب فتفيد أنه جل وعلا الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الآخريين فهو تعالى المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية وهو تعالى في جميعها ظاهر وباطن جامع للظهور بالادلة والخفاء فلا يدرك بالحواس، وفي هذا حجة على من جوز إدراكه سبحانه في الآخرة بالحاسة أى وذلك لأنه تعالى ما من وقت يصح اتصافه بالأولية والآخرية إلا ويصح اتصافه بالظاهرية والباطنية معاً، فاذا جوز إدراكه سبحانه بالحاسة في الآخرة فقد نفى كونه سبحانه باطناً وهو خلاف ما تدل عليه الآية، وأجاب عن ذلك صاحب الكشف فقال: إن تفسير الباطن بأنه غير مدرك بالحواس تفسير بحسب التشبهى فان بطونه تعالى عن إدراك العقول كبطونه عن إدراك الحواس لأن حقيقة الذات غير مدركة لا عقلاً ولا حساً باتفاق بين المحققين من الطائفتين، والزمخشري ممن سلم فهو الظاهر بوجوده والباطن بكنهه وهو سبحانه الجامع بين الوصفين أزلاً

وأبداً ، وهذا لا ينافي الرؤية لأنها لا تفيد ذلك عند مثبتها انتهى ، وهو حسن فلا تغفل *

وعليه فالتذليل بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣٠ ﴾ لثلاثتهم أن بطونه تعالى عن الأشياء يستلزم بطونها عنه عز وجل كما في الشاهد ، وقال الأزهري : قد يكون الظاهر والباطن بمعنى العالم لما ظهر وبطن ؛ وذلك أن من كان ظاهراً احتجب عنه الباطن ومن كان باطناً احتجب عنه الظاهر فان أردت أن تصفه بالعلم قلت هو ظاهر باطن مثله قوله تعالى : (لاشرقية ولا غربية) أي لاشرقية فقط ولا غربية فقط ولكنها شرقية غربية ، وفي التذليل المذكور حينئذ خفاء ، وقريب منه من وجه ما نقل أن الظاهر بمعنى العالي على كل شيء الغالب له من قولهم ظهر عليهم إذا علاهم وغلبهم ، والباطن الذي بطن كل شيء أي علم باطنه ، وتعقب بفوات المطابقة بين الظاهر والباطن عليه وأن بطنه بمعنى علم باطنه غير ثابت في اللغة ، لكن قيل: في الآثار ما ينصر تفسير الظاهر بما فسر *

أخرج مسلم . والترمذي . وابن أبي شيبة . والبيهقي عن أبي هريرة قال : « جاءت فاطمة رضي الله تعالى عنها إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تسأله خادماً فقال لها: قولي اللهم رب السموات السبع ورب العرش الكريم العظيم ربنا ورب كل شيء منزل التوراة والانجيل والفرقان فالتق الحب والنوى أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر » وقال الطيبي : المعنى بالظاهر في التفسير النبوي الغالب الذي يغلب ولا يغلب فيتصرف في المكنونات على سبيل الغلبة والاستيلاء إذ ليس فوقه أحد يمنعه ، وبالباطن من لا ملجأ ولا منجى دونه يلتجئ اليه ملتجئ ، وبحث فيه بجواز أن يكون المراد أنت الظاهر فليس فوقك شيء في الظهور أي أنت أظهر من كل شيء إذ ظهور كل شيء بك وأنت الباطن فليس دونك في البطون شيء أي أنت أبطن من كل شيء إذ كل شيء يعلم حقيقته غيره وهو أنت وأنت لا يعلم حقيقته غيرك ، أولان كل شيء يمكن معرفة حقيقته وأنت لا يمكن أصلاً معرفة حقيقته ، وأيضاً في دلالة الباطن على ما قال: خفاء جداً على أنه لو كان الامر كما ذكر ما عدل عنه أجلة العلماء فان الخير صحيح ، وقد جاء نحوه من رواية الامام أحمد . وأبي داود . وابن ماجه ، ويبعد عدم وقوف أولئك الأجلة عليه ، وأبعد من ذلك أن يكون ما ذكره عليه السلام من أسمائه تعالى غير ما في الآية ، ويحتمل أنه عليه الصلاة والسلام أراد بقوله : « فليس دونك شيء » ليس أقرب منك شيء ، ويؤيده ما أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات عن مقاتل قال : بلغنا في قوله تعالى : (هو الأول) الخ هو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء والظاهر فوق كل شيء والباطن أقرب من كل شيء ، وإنما يعني القرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه والذي يترجح عندي ما ذكر أولاً ، وعن بعض المتصوفة أهل وحدة الوجود أن المراد بقوله سبحانه : (هو الأول) الخ أنه لا موجود غيره تعالى إذ كل ما يتصور موجوداً فهو إما أول أو آخر أو ظاهر أو باطن فاذا كان الله تعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن لا غيره كان كل ما يتصور موجوداً هو سبحانه لا غيره ، وأيدوه بما في حديث مرفوع أخرجه الإمام أحمد . وعبد بن حميد . والترمذي . وابن المنذر . وجماعة عن أبي هريرة « والذي نفسي بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لبط على الله » قال أبو هريرة ، ثم قرأ النبي ﷺ (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) *

وحال القول بوحدة الوجود مشهور وأما الخير فمن المتشابه ، وقد قال فيه الترمذي : فسر أهل العلم

الحديث فقالوا : أى لهبط على علم الله تعالى وقدرته وسلطانه ، ويؤيد هذا ذكر التذليل وعدم اقتصاره عليه الصلاة والسلام على ما قبله ، وهذه الآية ينبغي لمن وجد في نفسه وسوسة فيما يتعلق بالله تعالى أن يقرأها ، فقد أخرج أبو داود عن أبي زميل أن ابن عباس قال له وقد أعلمه أن عنده وسوسة في ذلك : « إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل هو الاول » الآية *

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر . وأبي سعيد رضى الله تعالى عنهم عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا هذا الله كان قبل كل شيء فماذا كان قبل الله فان قالوا لكم ذلك فقولوا هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » *

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ بيان لبعض أحكام ملكها وقد مر تفسيره مراراً ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ مربيانه في سور سبأ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ تمثيل لاحاطة علمه تعالى بهم وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما كانوا ، وقيل : المعية مجاز مرسل عن العلم بعلاقة السببية والقرينة السباق واللاحق مع استحالة الحقيقة ، وقد أول السلف هذه الآية بذلك ، أخرج البيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس أنه قال فيها : عالم بكم أينما كنتم *

وأخرج أيضا عن سفیان الثوري أنه سئل عنها فقال : علمه معكم ، وفي البحر أنه اجتمعت الامة على هذا التأويل فيها وأنها لا تحمل على ظاهرها من المعية بالذات وهي حجة على منع التأويل في غيرها مما يجرى مجراها في استحالة الحمل على الظاهر ، وقد تأول هذه الآية . وتأول الحجر الاسوديين الله في الارض ، ولو اتسع عقله لتأول غير ذلك مما هو في معناه انتهى *

وأنت تعلم أن الاسلام ترك التأويل فانه قول على الله تعالى من غير علم ولا تأويل إلا ما أوقله السلف وتبعهم فيما كانوا عليه فان أولوا أولنا وإن فوضوا فوضنا ولا نأخذ تأويلهم لشيء سلباً لتأويل بخيره ، وقد رأيت بعض الزنادقة الخارجيين من رتبة الاسلام يضحكون من هذه الآية مع قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ويسخرون من القرآن الكريم لذلك وهو جهل فظيع وكفر شنيع نسأل الله تعالى العصمة والتوفيق *

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ عبارة عن إحاطته بأعمالهم وتأخير صفة العلم الذي هو من صفات الذات عن الخلق الذي هو من صفات الافعال مع أن صفات الذات متقدمة على صفات الافعال لما أن المراد الإشارة إلى ما يدور عليه الجزاء من العلم التابع للمعلوم ، وقيل : إن الخلق دليل العلم إذ يستدل بخلق الله تعالى وإيجاده سبحانه لمصنوعاته المتقنة على أنه عز وجل عالم ومن شأن المدلول التأخر عن الدليل لتوقفه عليه ، وقوله تعالى :

﴿ لَهُ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لقوله سبحانه المشعر بالاعادة :

﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى إليه تعالى وحده لا إلى غيره سبحانه استقلالاً أو اشتراكاً ترجع جميع الأمور أعراضها وجواهرها ، وقرأ الحسن . وابن أبي اسحق . والاعرج (ترجع) مبنياً للفاعل من رجع رجوعاً ، وعلى البناء للمفعول كما في قراءة الجمهور هو من رجع رجعاً ﴿ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ ﴾ مر تفسيره مراراً ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ ﴾ أى مباليغ في العلم ﴿ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى بمكنوناتها

اللازمة لها بيان لا إحاطة عليه تعالى بما يضمرونه من نياتهم بعد بيان إحاطته بأعمالهم التي يظهرونها ، وجوز أن يراد (بذات الصدور) نفسها وحققتها على أن الإحاطة بما فيها تعلم بالأولى .

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ أي جعلكم سبجانه خلفاء عنه عز وجل في التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة ، عبر جل شأنه عما بأيديهم من الاموال بذلك تحقيقاً للحق وترغيباً في الانفاق فان من علم أنها لله تعالى وإتمامه بمنزلة الوكيل يصرفها إلى ماعينه الله تعالى من المصارف هان عليه الانفاق ، أو جعلكم خلفاء عنكم كان قبلكم فيما كان بأيديهم فانتقل لكم ، وفيه أيضاً ترغيب في الانفاق وتسهيل له لأن من علم أنه لم يبق لمن قبله وانتقل إليه علم أنه لا يدوم له وينتقل لغيره فيسهل عليه إخراجه ويرغب في كسب الأجر بإنفاقه وكيفيك قول الناس فيما ملكته لقد كان هذامرة لفلان ، وفي الحديث « يقول ابن آدم : مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أظنت فأنتيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأَمْضيت » والمعنى الاول هو المناسب لقوله تعالى : (له ملك السموات والارض) وعليه ما حكى أنه قيل لاعرابي : لمن هذه الايل ؟ فقال : هي لله تعالى عندي ، ويميل إليه قول القائل :

وما المال والأهلون (إلا ودائع) ولا بد يوماً أن ترد الودائع

والآية على ما روى عن الضحاك نزلت في تبوك فلا تغفل ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا ﴾ حسبما أمروا به ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ ٨ ﴾ وعد فيه من المبالغات ما لا يخفى حيث جعل الجملة إسمية وكان الظاهر أن تكون فعلية في جواب الأمر بأن يقال مثلاً آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا تعطوا أجراً كبيراً ، وأعيد ذكر الايمان والانفاق دون أن يقال فمن يفعل ذلك فله أجر كبير وعدل عن فللذين آمنوا منكم وأنفقوا أجر إلى ما في النظم الكريم ونغم الأجر بالتنكير ، ووصف بالكبير ، وقوله عز وجل : ﴿ وَمَالَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ استئناف قيل : مسوق لتوبيخهم على ترك الايمان حسبما أمروا به بإنكار أن يكون لهم في ذلك عذر ما في الجملة على أن لا تؤمنون حال من ضمير لكم والعامل ما فيه من معنى الاستقرار أي شيء حصل لكم غير مؤمنين على توجيه الإنكار والنفي إلى السبب فقط مع تحقق المسبب وهو مضمون الجملة الحالية أغنى عدم الايمان فأى لانكار سبب الواقع ونفيه فقط ، ونظيره قوله تعالى : (مالكم لا ترجون الله وقاراً) وقد يتوجه الإنكار والنفي في مثل هذا التركيب لسبب الوقوع فيسريان إلى المسبب أيضاً كما في قوله تعالى : (ومالي لا أعبد) الخ ولا يمكن إجراء ذلك هنا لتحقيق عدم الايمان وهذا المعنى مما لا غبار عليه ، وقوله تعالى : ﴿ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ حال من ضمير (لا تؤمنون) مفيدة على ما قيل : لتوبيخهم على الكفر مع تحقق ما يوجب عدمه بعد توبيخهم عليه مع عدم ما يوجب ، ولأم (لتؤمنوا) صلة - يدعو - وهو يتعدى بها ويألى أي وأي عذر في ترك الايمان (والرسول يدعوكم) اليه وينبهم عليه ، وجوز أن تكون اللام تعليلية وقوله سبجانه : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ حال من فاعل يدعوكم أو من مفعوله أي وقد أخذ الله ميثاقكم بالايمان من قبل كما يشعر به تخالف الفعلين مضارعاً وماضياً ، وجوز كونه حالاً معطوفاً على الحال قبلها فالجملة حال بعد حال من ضمير (تؤمنون) والتخالف بالإسمية والفعلية يبعد ذلك في الجملة ، وأياً ما كان فأخذ الميثاق إشارة إلى ما كان منه تعالى من نصب الأدلة الآفاقية والانسائية

(٢٢٢ - ٢٧ ج - تفسير روح المعاني)

والتمكن من النظر فقوله تعالى: (والرسول يدعوكم) إشارة إلى الدليل السمعي وهذا إشارة إلى الدليل العقلي وفي التقديم والتأخير ما يؤيد القول بشرف السمعي على العقلي *

وقال البغوي: هو ما كان حين أخرجه من ظهر آدم وأشهدهم بأنه سبحانه بهم فشهدوا - وعليه لا يجاز - والاول اختيار الزمخشري، وتعقبه ابن المنير فقال: لا عليه أن يحمل العهد على حقيقته وهو المأخوذ يوم الذر وكل ما أجازته العقل وورد به الشرع وجب الايمان به، وروى ذلك عن مجاهد. وعطاء. والسكبي. ومقاتل، وضعفه الامام بأن المراد إلزام المخاطبين الايمان ونفى أن يكون لهم عذر في تركه وهم لا يعلمون هذا العهد إلا من جهة الرسول فقبل التصديق بالرسول لا يكون سبياً لازامهم الايمان به، وقال الطيبي: يمكن أن يقال. إن الضمير في (أخذ) إن كان الله تعالى فالمناسب أن يراد بالميثاق ما دل عليه قوله تعالى: (قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي) الخ لأن المعنى (فإما يأتينكم مني هدى) برسول أبعثه اليكم وكتاب أنزله عليكم، ويدل على الأول قوله سبحانه: (والرسول يدعوكم لتؤمنوا) وعلى الثاني (هو الذي ينزل على عبده آيات) الخ، وإن كان للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فالظاهر أن يراد به ما في قوله تعالى: (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) على أن يضاف الميثاق إلى النبيين إضافة إلى الموثق لا الموثق عليه أي الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أممهم، وهو الوجه لأن الخطاب مع الصحابة رضي الله تعالى عنهم كما يدل عليه ما بعد، ولعل الميثاق نحو ما روينا عن الامام أحمد عن عبادة بن الصامت بايعنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على السمع والطاعة في النشاط والكسل. وعلى النفقة في العسر واليسر. وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعلى أن نقول في الله تعالى ولا نخاف لومة لائم انتهى * ويضعف الأول بنحو ما ضعف به الامام حمل العهد على ما كان يوم الذر، وضعف الثاني أظهر من أن ينسب عليه * والخطاب قال صاحب الكشف: عام يوجب من لم يؤمن منهم بعدم الايمان ثم من آمن بعدم الانفاق في سبيله * وكلام أبي حيان ظاهر في أنه للمؤمنين، وجعل آمنوا أمراً بالثبات على الايمان ودوامه (وما لكم لا تؤمنون) الخ على معنى كيف لا تثبتون على الايمان ودواعي ذلك موجودة *

وظاهر كلام بعضهم كونه للكفرة وهو الذي أشرنا اليه من قبل، ولعل ما ذكره صاحب الكشف أولى إلا أنه قيل عليه: إن آمنوا إذا كان خطاباً للمتصفين بالايمان ولغير المتصفين به يلزم استعمال الامر في طلب أصل الفعل نظراً لغير المتصفين وفي طلب الثبات نظراً للمتصفين وفيه ما فيه، ويحتاج في التفصيص عن ذلك إلى إرادة معنى عام للامرين، وقد يقال أراد أنه عمد إلى جماعة مختلفين في الاحوال فأمروا بأوامر شتى وخو طبوا بخطابات متعددة فتوجه كل أمر وكل خطاب إلى من يليق به وهذا كما يقول الوالي لأهل بلده: أذنوا وصلوا ودرسوا وأنفقوا على الفقراء وأوفوا السكيل والميزان إلى غير ذلك فان كل أمر ينصرف إلى من يليق به منهم فتأمل، وقرئ (وما لكم لا تؤمنون) بالله ورسوله، وقرأ أبو عمرو (وقد أخذ ميثاقكم) بالبناء للمفعول ورفع (ميثاقكم) ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝۸﴾ شرط جوابه محذوف دل عليه ما قبل، والمعنى إن كنتم مؤمنين لموجب ما فهذا موجب لا موجب وراءه، وجوز أن يكون المراد إن كنتم ممن يؤمن فما لكم لا تؤمنون والحالة هذه، وقال الواحدي: أي إن كنتم مؤمنين بدليل عقلي أو نقلي فقد بان وظهر لكم على يدي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بيعته وإنزال القرآن عليه؛ وأياً ما كان فلا تناقض بين هذا وقوله تعالى: (وما لكم لا تؤمنون) وقال الطبري

في ذلك: المراد إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال فآمنوا الآن؛ وقيل: المراد إن كنتم مؤمنين بموسى وعيسى عليهما السلام فآمنوا بمحمد صل الله تعالى عليه وسلم فإن شريعتهما تقتضي الايمان به عليه الصلاة والسلام أو إن كنتم مؤمنين بالميثاق المأخوذ عليكم في عالم الذر فآمنوا الآن، وقيل المراد إن دتم على الايمان فآتم في رتب شريفة وأقدار رفيعة، والكل كما ترى *

وظاهر الأخير أن الخطاب مع المؤمنين وهو الذي اختاره الطيبي، وقال في هذا الشرط: يمكن أن يجري على التعليل كما في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين) لأن الكلام مع المؤمنين على سبيل التوبيخ والتقريع يدل عليه ما بعد ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ﴾ حسب ما يعين لكم من المصالح ﴿آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ﴾ واضحات، والظاهر أن المراد بها آيات القرآن، وقيل: المعجزات ﴿لِيُخْرِجَكُمُ﴾ أي الله تعالى إذ هو سبحانه المخبر عنه، أو العبد لقرب الذكر والمراد ليخرجكم بها ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الايمان، وقرئ في السبعة ينزل مضارعا فبعض ثقل وبعض خفف.

وقرأ الحسن بالوجهين، وقرأ زيد بن علي. والاعمش أنزل ماضياً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في الرأفة والرحمة حيث أزال عنكم موانع سعادة البارين وهذا كم إليها على أتم وجه، وقرئ في السبعة (لرؤوف) بواوين، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا﴾ توبيخ على ترك الانفاق إما للمؤمنين الغير المنفقين أولاً وللك الموبخين أولاً على ترك الايمان، وبجهم سبحانه على ذلك بعد توبيخهم على ترك الايمان بانكار أن يكون لهم في ذلك أيضاً عذر من الأعذار، و(أن) صدريّة لازائدة كما قيل، واقتضاه كلام الاخفش والكلام على تقدير حرف الجر، فالصدر المؤول في محل نصب أو جر على القولين وحذف مفعول الانفاق للعلم به بما تقدم وقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لتشديد التوبيخ، والمراد به كل خير يقربهم اليه تعالى على سبيل الاستعارة التصريحية أي أي شئ لكم في أن لا تنفقوا فيما هو قربة إلى الله تعالى ما هو له في الحقيقة وإنما أنتم خلفاؤه سبحانه في صرفه إلى ما عينه عز وجل من المصارف، أو ما انتقل اليكم من غيركم وسينتقل منكم إلى الغير *

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يرث كل شئ فيهما ولا يبقى لأحد مال على أن ميراثهما مجاز أو كناية عن ميراث ما فيهما لأن أخذ الظرف يلزمه أخذ المظروف *

وجوز أن يراديرثهما وما فيهما، واختير الأول أنه يكفي لتوبيخهم إذ لا علاقة لأخذ السموات والأرض هنا، والجملة حال من فاعل لا تنفقوا أو مفعوله مؤكدة للتوبيخ فإن ترك الانفاق بغير سبب قبيح منكر ومع تحقق ما يوجب الانفاق أشد في القبح وأدخل في الانكار فإن بيان بقاء جميع ما في السموات والأرض من الأموال بالآخرة لله عز وجل من غير أن يبقى لأحد من أصحابها شئ أقوى في إيجاب الانفاق عليهم من بيان أنها لله تعالى في الحقيقة، أو أنها انتقلت اليهم من غيرهم كأنه قيل: وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل الله تعالى، والحال أنه لا يبقى لكم ولا لغيركم منها شئ بل تبقى كلها لله عز وجل، وإظهار الاسم الجليل في موقع الاضمار لزيادة التقرير وترية المهابة، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ﴾ بيان لتفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت أحوالهم في الانفاق بعد بيان أن لهم أجراً كبيراً على الاطلاق حثاً لهم على تحري الإفضل،

وعطف القتال على الاتفاق للايدان بأنه من أهم مواد الاتفاق مع كونه في نفسه من أفضل العبادات وأنه لا يخلو من الاتفاق أصلاً وقسيم (من أنفق) محذوف أى لا يستوى ذلك وغيره ، وحذف لظهوره ودلالة ما بعد عليه ، والفتح فتح مكة على ما روى عن قتادة . وزيد بن أسلم . ومجاهد - وهو المشهور - فتعريفه للعهد أو للجنس ادعاء ، وقال الشعبي : هو فتح الحديبية وقد مروجه تسميته فتحاً في سورة الفتح ، وفي بعض الآثار ما يدل عليه • أخرج ابن جرير . وابن أبي حاتم . وابن مردويه . وأبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عام الحديبية حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : يوشك أن يأتي قوم يحتقرون أعمالكم مع أعمالهم قلنا : من هم يا رسول الله أقرش ؟ قال : لا ولكن هم أهل اليمن هم أرق أفدة وألين قلوباً ، فقلنا : أهم خير منا يا رسول الله ؟ قال : لو كان لاحدهم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه ألا إن هذا فصل ما بيننا وبين الناس (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح) الآية •

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما (قبل) بغير (من) ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ إشارة إلى من أنفق ، والجمع بالنظر إلى معنى (من) كما أن أفراد الضميرين السابقين بالنظر إلى لفظها ، ووضع اسم الإشارة البعيد موضع الضمير للتعظيم والإشعار بأن مدار الحكم هو إنفاقهم قبل الفتح وقتالهم . ومحل الرفع على الابتداء ، والخبر قوله تعالى : ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ أى أولئك المنعوتون بذنوبك النعتين الجليلين أرفع منزلة وأجل قدراً •

﴿ مَنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مَن بَعْدُ ﴾ بعد الفتح ﴿ وَقَتَلُوا ﴾ وذهب بعضهم إلى أن فاعل (لا يستوى) ضمير يعود على الاتفاق أى لا يستوى هو أى الاتفاق أى جنسه إذ منه ما هو قبل الفتح ومنه ما هو بعده ، و (من أنفق) مبتدأ ، وجملة (أولئك أعظم) خبره وفيه تفكيك الكلام وخروج عن الظاهر لغیر موجب فالوجه ما تقدم ، ويعلم منه التزاما التفاوت بين الاتفاق قبل الفتح والاتفاق بعده ، وإنما كان أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا بعد لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا عند كمال الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال لقلة المسلمين وكثرة أعدائهم وعدم ما ترغب فيه النفوس طبعاً من كثرة الغنائم فكان ذلك أنفع وأشد على النفس وفاعله أقوى يقيناً بما عند الله تعالى وأعظم رغبة فيه ، ولا كذلك الذين أنفقوا بعد ﴿ وَكَلَّا ﴾ أى كل واحد من الفريقين لا الأولين فقط ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى ﴾ أى المثوبة الحسنى وهى الجنة على ما روى عن مجاهد وقاتدة ، وقيل : أعم من ذلك والنصر والغنيمة في الدنيا ، وقرأ ابن عامر . وعبد الوارث - وكل - بالرفع ، والظاهر أنه مبتدأ والجملة بعده خبر وللعاقد محذوف أى وعده كما في قوله :

وخالد (يحمد) ساداتنا بالحق لا يحمد بالباطل

يريد يحمده والجملة عطف على أولئك أعظم درجة وبينهما من التطابق ما ليس على قراءة الجمهور ، ومنع البصريون حذف العائد من خبر المبتدأ ، وقالوا : لا يجوز إلا في الشعر بخلاف حذفه من جملة الصفة وهم محجوجون بهذه القراءة ، وقول بعضهم : فيها إن كل خبر مبتدأ تقديره ، وأولئك كل ، وجملة (وعد الله) صفة - كل - تأويل ركيك ، وفيه زيادة حذف ، على أن بعض النحاة منع وصف - كل - بالجملة لأنه معرفة بتقدير وكلهم ، وقال الشهاب : الصحيح ما ذهب إليه ابن مالك من أن عدم جواز حذف العائد من جملة الخبر

في غير - كل - وما ضاهاها في الافتقار والعموم فانه في ذلك مطرد لكن ادعى فيه الاجماع وهو محل نزاع .
﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٠﴾ عالم بظاهره وباطنه ويجازيكم على حسبه فالكلام وعد ووعد، وفي الآيات من الدلالة على فضل السابقين المهاجرين والانصار ما لا يخفى ، والمراد بهم المؤمنون المنفقون المقاتلون قبل فتح مكة أو قبل الحديدية بناءً على الخلاف السابق ، والآية على ما ذكره الواحدى عن الكلبي نزلت في أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أى بسببه ، وأنت تعلم أن خصوص السبب لا يدل على تخصيص الحكم ، فلذلك قال: (أولئك) ليشمل غيره رضى الله تعالى عنه ممن اتصف بذلك ، نعم هو أكمل الأفراد فانه أنفق قبل الفتح وقبل الهجرة جميع ماله وبذل نفسه معه عليه الصلاة والسلام ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «ليس أحد آمن على بصحبته من أبي بكر» وذلك يكفى لنزولها فيه ، وفي الكشف إن أولئك هم السابقون الأولون من المهاجرين والانصار الذين قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» قال الطيبي: الحديث من رواية البخارى . ومسلم . وأبى داود . والترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: لا تسبوا أصحابي فلو أن أحداً أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» ، وتعقبه في الكشف بأنه على هذا لا يختص بالسابقين الأولين كما أشار في الكشف إليه وهو مبنى على أن الخطاب في لا تسبوا ليس للحاضرين ولا للوجودين في عصره صلى الله تعالى عليه وسلم بل لكل من يصلح للخطاب كما في قوله تعالى: (ولو ترى إذ وقفوا) الآية وإلا فقد قيل: إن الخطاب يقتضى الحضور والوجود ولا بد من مغيرة المخاطبين بالنهى عن سبهم فهم السابقون الكاملون في الصحبة .
وأقول شاع الاستدلال بهذا الحديث على فضل الصحابة مطلقاً بناءً على ما قالوا: إن إضافة الجمع تفيد الاستغراق وعليه صاحب الكشف ، واستشكل أمر الخطاب ، وأجيب عنه بما سمعت وبأنه على حد خطاب الله تعالى الأزلى لكن في بعض الاخبار ما يؤيد أن المخاطبين بعض من الصحابة والممدوحين بعض آخر منهم فتكون الإضافة للعهد أو بحمل الأصحاب على الكاملين في الصحبة *

أخرج أحمد عن أنس قال: «كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام فقال خالد لعبد الرحمن ابن عوف: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها فبلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: دعوا لى أصحابي فوالذي نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد - أو مثل الجبال - ذهباً ما بلغتم أعمالهم» ثم في هذا الحديث تأييد ما لكون أولئك هم الذين أنفقوا قبل الحديدية لأن إسلامه رضى الله تعالى عنه كان بين الحديدية وفتح مكة كما في التقريب وغيره ، والزخشرى فسر الفتح بفتح مكة فلا تغفل ، قال الجلال المحلى: كون الخطاب في «لا تسبوا» للصحابة السابقين ، وقال: نزلهم صلى الله تعالى عليه وسلم بسبهم الذى لا يليق بهم منزلة غيرهم حيث علل بما ذكره وهو وجه حسن فتدبر ؛ وقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ندب بليغ من الله تعالى إلى الاتفاق في سبيله مؤكداً للامر السابق به وللتوبيخ على تركه فلا استفهام ليس على حقيقته بل للحث ، والقرض الحسن الاتفاق بالاخلاص وتحري أكرم المال وأفضل الجهات ، وذكر بعضهم أن القرض الحسن ما يجمع عشر صفات . أن يكون من الحلال فان الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً . وأن يكون من أكرم ما يملكه المرء . وأن يكون والمرء صحيح شحيح يأمل العيش ويخشى الفقر . وأن يضعه في الأحوج الأولي : وأن يكرم ذلك . وأن لا يتبعه بالمعنى

والاذى. وأن يقصد به وجه الله تعالى. وأن يستحق ما يعطى وإن كثُر. وأن يكون من أحب أموره إليه. وأن يتوخي في إيصاله للفقير ما هو أسر لديه من الوجوه كحمله إلى بيته. ولا يخفى أنه يمكن الزيادة والنقص فيما ذكره. وأما كان فالكلام إما على التجوز في الفعل فيكون استعارة تبعية تصريرية أو التجوز في مجموع الجملة فيكون استعارة تمثيلية وهو الأبلغ أى من ذا الذى ينفق ماله في سبيل الله تعالى مخلصاً متحريراً أكرمه وأفضل الجهات رجاء أن يعوضه سبحانه بدله كمن يقرضه ﴿فِيضَاعُهُ لَهُ﴾ فيعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً أضعافاً كثيرة من فضله *

﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١١﴾ أى وذلك الأجر المضموم إليه الإضعاف كريم مرضى في نفسه حقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون ، فيه إشارة إلى أن الأجر كما أنه زائد في السكم بالغ في السكف فالجملة حالية لا عطف على (فيضاعفه) ، وجوز العطف والمغايرة ثابتة بين الضعف والأجر نفسه فان الإضعاف من محض الفضل والمثل فضل هو أجر ، ونصب يضاعفه على جواب الاستفهام بحسب المعنى كأنه قيل : أيقرض الله تعالى أحد فيضاعفه له فان المستول عنه بحسب اللفظ وإن كان هو الفاعل لكنه في المعنى هو الفعل إذ ليس المراد أن الفعل قد وقع السؤال عن تعيين فاعله كقولك : من جاءك اليوم ؟ إذا علمت أنه جاءه لم تعرفه بعينه وإنما أورد على هذا الأسلوب للمبالغة في الطلب حتى كأن الفعل لكثرة دواعيه قد وقع وإنما يسأل عن فاعله ليجازى ولم يعتبر الظاهر لانه يشترط بلا خلاف في النصب بعد الفاء أن لا يتضمن ما قبل وقوع الفعل نحو لم ضربت زيداً فيجازيك فانه حينئذ لا يتضمن سبق مصدر مستقبل وعلى هذا يؤل كل ما فيه نصب وما قبل متضمن للوقوع ، وقرأ غير واحد (فيضاعفه) بالرفع على القياس نظر الظاهر المتضمن للوقوع وهو ما عطف على يقرض أو على (فهو يضاعفه) وقرئ فيضعفه بالرفع والنصب ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ظرف لما تعلق به له أوله أول قوله تعالى : (فيضاعفه) أو منصوب بإضمار اذكر تفخيماً لذلك اليوم ، والرؤية بصرية والخطاب لكل من تتأتى منه أول سيد المخاطبين صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقوله عز وجل : ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ حال من مفعول ترى والمراد بالنور حقيقته على ما ظهر من شمس الأخبار - واليه ذهب الجمهور - والمعنى يسعى نورهم إذا سعوا *

﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أخرج ابن أبي شيبة . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبي حاتم . والحاكم وصححه . وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال ، « يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نوراً من نوره على إيهامه يطفأ مرة ويقد أخرى » وظهره أن هذا النور يكون عند المرور على الصراط ، وقال بعضهم : يكون قبل ذلك ويستمر معهم إذا مروا على الصراط ، وفي الأخبار ما يقتضيه كما ستسمعه قريباً إن شاء الله تعالى ، والمراد أنه يكون لهم في جهتين جهة الإمام . واليمين وخصاً لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما أن الأشقياء يؤتوهم من شمالكهم وراء ظهورهم ، وفي البحر الظاهر أن النور قسمان : نور بين أيديهم يضيء الجهة التي يؤمونها . ونور بآيمانهم يضيء ما حواليلهم من الجهات ، وقال الجمهور : إن النور أصله بآيمانهم والذي بين أيديهم هو الضوء المنبسط من ذلك ، وقيل : الباء بمعنى عن أي وعن آيمانهم والمعنى في جميع جهاتهم ، وذكر الإيمان لشرفها انتهى ، ويشهد لهذا المعنى

ما أخرج ابن أبي حاتم . والحاكم وصححه . وابن مردويه عن عبد الرحمن بن جبير بن نصير أنه سمع أبا ذر . وأبا الدرداء قالا : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة وأول من يؤذن له فيرفع رأسه فأرفع رأسي فأنظر بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي فأعرف أمتي بين الأمم فقيل : يا رسول الله وكيف تعرفهم من بين الأمم ما بين نوح عليه السلام إلى أمتك ؟ قال : غز محجلون من أثر الوضوء ولا يكون لأحد غيرهم وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود وأعرفهم بنورهم الذي يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم » وظاهر هذا الخبر اختصاص النور بمؤمني هذه الأمة وكذا إتياء الكتب بالإيمان وبعض الأخبار يقتضي كونه لكل مؤمن ، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال : « تبعث ظلمة يوم القيامة فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه حتى يبعث الله تعالى بالنور للمؤمنين بقدر أعمالهم » الخبر ، وأخرج عنه الحاكم وصححه . وابن أبي حاتم من وجه آخر . وابن المبارك . والبيهقي في الاسماء والصفات خبراً طويلاً فيه أيضاً ما هو ظاهر في العموم ، وكذا ما أخرج ابن جرير . والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال : بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله تعالى نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلاً لهم من الله عز وجل إلى الجنة ، ولا ينافي هذا الخبر كونهم يمرون بنورهم على الصراط كما لا يخفى ، وكذا إتياء الكتب بالإيمان ، ففي هداية المريد لجوهرة التوحيد ظاهر الآيات والاحاديث عدم اختصاصه بمعنى أخذ الصحف بهذه الأمة وإن تردد فيه بعض العلماء انتهى *

ويمكن أن يقال : إن ما يكون من النور لهذه الأمة أجلى من النور الذي يكون لغيرها أو هو ممتاز بنوع آخر من الامتياز ، وأما إتياء الكتب بالإيمان فعلة لكثرة فيها بالنسبة إلى سائر الأمم تعرف به ، وفي هذا المطلب أبحاث آخر تذكر إن شاء الله تعالى في محلها ، وقيل : أريد بالنور القرآن ، وقال الضحاك : النور استعارة عن الهدى والرضوان الذي هم فيه ، وقرأ سهل بن شعيب السهمي . وأبو حيوة (وبأيمانهم) بكسر الهمزة ، وخارج ذلك أبو حيان على أن الظرف يعني بين أيديهم متعلق بمحذوف والعطف عليه بذلك الاعتبار أي كائناً بين أيديهم وكائناً بسبب إيمانهم وهو كما ترى ، ولعله متعلق بالقول المقدر في قوله تعالى :

﴿ بَشِّرْكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ ﴾ أي وبسبب إيمانهم يقال لهم ذلك ، وجملة القول ، إما معطوفة على ما قبل أو استئناف أو حال ويجوز على الحالية تقدير الوصف منه أي مقولاً لهم ، والقائل الملائكة الذين يتلقونهم *

والمراد بالبشرى ما يبشر به دون التبشير والكلام على حذف مضاف أي ما تبشرون به دخول جنات يصح بدونه أي ما تبشرون به جنات ، ويصح بدونه أي ما تبشرون به جنات ، وما قيل : البشارة لا تكون بالأعيان فيه نظر ، وتقدير

المضاف لا يغني عن تأويل البشرى لأن التبشير ليس عين الدخول ، وجملة قوله تعالى : ﴿ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِ الْأَنْهَارُ ﴾ في موضع الصفة لجنات ، وقوله سبحانه : ﴿ خَلْدَيْنَ فِيهَا ﴾ حال من جنات ، قال أبو حيان : وفي الكلام التفتات من ضمير الخطاب في (بشر اكهم) إلى ضمير الغائب في (خالدين) ولو أجرى على الخطاب لكان التركيب خالداً أنتم فيها :

﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٢ ﴾ يحتمل أن يكون من كلامه تعالى فالإشارة إلى ما ذكر من النور والبشرى بالجنات ، ويحتمل أن يكون من كلام الملائكة عليهم السلام المتلقين لهم ، فالإشارة إلى ما هم فيه من النور وغيره أو إلى الجنات بتأويل ما ذكر أو لكونها فوزاً على ما قيل ، وقرئ : ذلك الفوز بدون (هو) *

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ بدل من (يوم ترى) ، وجوز أن يكون معمولاً لا ذكره
وقال ابن عطية : يظهر لي أن العامل فيه ذلك هو الفوز العظيم ، ويكون معنى الفوز عليه أعظم كأنه قيل : إن
المؤمنين يفوزون يوم يعترى المنافقين والمنافقات كذا وكذا لأن ظهور المرء يوم خمول عدوه مضادة أبدع
وأفخم ، وتعقبه في البحر بأن ظاهر تقريره أن يوم منصوب بالفوز وهو لا يجوز لأنه مصدر قد وصف قبل أخذ
متعلقاته فلا يجوز إعماله ولو أعمل وصفه وهو العظيم لجاز - أي الفوز الذي عظم - أي قدره يوم انتهى ، وفي عدم
جواز إعمال مثل هذا المصدر في مثل هذا الم معمول خلاف ، ثم إن تعلق هذا الظرف بشئ من تلك الجملة خلاف
الظاهر ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظُرُونَا﴾ أي انتظرونا ﴿نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ نصب منه وذلك أن يلحقوا بهم فيستنبروا به
وقيل : فيأخذوا شيئاً منه يكون معهم تخیلوا تأتي ذلك فقالوه ، وأصل الاقتباس طلب القبس أي الجذوة
من النار ، وجوز أن يكون المعنى انظروا إلينا نقتبس الخ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنورين
أيديهم فيستضيئون به فانظرونا على الحذف والايصال لان النظر بمعنى مجرد الرؤية يتعدى إلى ما أراد التأمل
تعدى بفي لكن حمل الآية على ذلك خلاف الظاهر ؛ وقولهم : للمؤمنين ذلك لأنهم في ظلمة لا يدرون كيف
يمشون فيها ، وروى أنه يكون ذلك على الصراط *

وفي الآثار دلالة على أنهم يكون لهم نور فيطفاً فيقولون ذلك ، أخرج الطبراني . وابن مردويه عن ابن عباس
قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترأ منه على عبادته وأما عند الصراط
فإن الله تعالى يعطي كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً فإذا استواء على الصراط أطفأ الله نور المنافقين والمنافقات
فقال المنافقون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وقال المؤمنون : أتمم لنا نورنا فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً *
وفي حديث آخر مرفوع عنه أيضاً إن نور المنافق يطفأ قبل أن يأتي الصراط ، وأخرج عبد بن حميد .
وابن المنذر عن أبي فاختة يجمع الله تعالى الخلاق يوم القيامة ويرسل الله سبحانه على الناس ظلمة فيستغيثون
رهبهم فيؤتى الله تعالى كل مؤمن منهم نوراً ويؤتى المنافقين نوراً فينطلقون جميعاً متوجهين إلى الجنة معهم نورهم
فبينما هم كذلك إذ أطفأ الله تعالى نور المنافقين فيترددون في الظلمة ويسبقهم المؤمنون بنورهم بين أيديهم
فيقولون : انظرونا نقتبس من نوركم الخبر ، والأخبار في إتياء المنافق نوراً ثم إطفائه كثيرة وليس في الآية ما ياباه
وقرأ زيد بن علي . وابن وثاب . والاعمش . وطلحة . وحمة (أنظرونا) بقطع الهمزة وفتحها وكسر
الظاء من النظرة وهي الامهال يقال أنظر المديون أي أمهله ، وضع (انظرونا) بمعنى المهلة وإنظار الدائن المديون
موضع اتداد الرقيق ومشيه الهوينا ليلحقه رفيقه على سبيل الاستعارة بعد سبق تشبيه الحالة بالحالة مبالغة في العجز
وإظهار الافتقار ، وقيل : هو من أنظر أي أخر ، والمراد جعلونا في آخركم ولا تسبقونا بحيث تقوتونا ولا نلحق بكم *
وقال المهدي : (أنظرونا . وانظرونا) بمعنى وهما من الانتظار تقول العرب : أنظرته بكذا وانتظرته بمعنى واحد والمعنى
امهلونا ﴿ قيل ﴾ القائلون على ما روى عن ابن عباس المؤمنون ، وعلى ما روى عن مقاتل الملائكة عليهم السلام *
﴿ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾ قال ابن عباس : أي من حيث جئتم من الظلمة أو إلى المكان الذي قسم فيه النور على
ماصح عن أبي أمامة ﴿ قَالَتُمْسُوا نُوراً ﴾ هناك ، قال مقاتل : هذا من الاستهزاء بهم كما استهزوا بالمؤمنين

في الدنيا حين قالوا آمنا وليسوا بمؤمنين، وذلك قوله تعالى : (الله يستهزئ بهم) أى حين يقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، وقال أبو أمامة : يرجعون حين يقال لهم ذلك إلى المكان الذى قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون اليهم وقد ضرب بينهم بسور وهى خدعة الله تعالى التى خدع بها المنافقين حيث قال سبحانه : (يخادعون الله وهو خادعهم) ، وقيل : المراد ارجعوا إلى الدنيا والتمسوا نوراً أى بتحصيل سببه وهو الايمان أو تنحوا عنا والتمسوا نوراً غير هذا فلا سبيل لكم إلى الاقتباس منه ، والغرض التهكم والاستهزاء أيضاً * وقيل : أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة المكشوفة تهكما بهم وهو خلاف الظاهر ، وأياً ما كان فالظاهر أن وراءكم معمول لارجعوا *

وقيل : لا محل له من الاعراب لأنه بمعنى ارجعوا فكأنه قيل : ارجعوا ارجعوا كقولهم (وراءك) أوسع لك أى ارجع تجد مكاناً أوسع لك ﴿ فُضِرَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بين الفريقين ، وقرأ زيد بن علي . وعبيد بن عمير (فضرب) مبنياً للفاعل أى فضرب هو أى الله عز وجل ﴿ بسور ﴾ أى بحاجز ، قال ابن زيد : هو الاعراف ، وقال غير واحد : حاجز غيره والباء مزيدة ﴿ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ ﴾ أى الباب الذى روى عن مقاتل أو السور وهو الجانب الذى يلي مكان المؤمنين أعنى الجنة ﴿ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ الثواب والتعظيم الذى لا يكتسه ﴿ وَظَاهَرُهُ ﴾ الجانب الذى يلي مكان المنافقين أعنى النار ﴿ مِنْ قِبَلِهِ ﴾ أى من جهته ﴿ الْعَذَابُ ١٣ ﴾ وهذا السور قيل : يكون فى تلك النشأة وتبدل هذا العالم واختلاف أوضاعه فى موضع الجدار الشرقى من مسجد بيت المقدس *

أخرج عبد بن حميد عن أبي سنان قال : كنت مع علي بن عبد الله بن عباس عند وادى جهنم يعنى المكان المعروف عند بيت المقدس فحدث عن أبيه أنه قال : وقد تلا قوله تعالى : (فضرب بينهم بسور) هذا موضع السور عند وادى جهنم ، وأخرج هو . وابن جرير . وابن المنذر . والحاكم وصححه وغيرهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : إن السور الذى ذكره الله تعالى فى القرآن (فضرب بينهم بسور) هو سور بيت المقدس الشرقى (باطنه فيه الرحمة) المسجد (وظاهره من قبله العذاب) يعنى وادى جهنم وما يليه *

وأخرج عن عبادة بن الصامت أنه كان على سور بيت المقدس الشرقى فبكى فقل : ما يبكيك ؟ فقال : ههنا أخبرنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه رأى جهنم ولا يخفى أن هذا ونظائره أمور مبنية على اختلاف العالمين وتغاير النشأتين على وجه لا تصل العقول إلى إدراك كلفيته والوقوف على تفاصيله ، فان صح الخبر لم يسعنا إلا الايمان لعدم خروج الامر عن دائرة الامكان ، وأبو حيان حكى عن سمعت . وعن كعب الاحبار أنه

الجدار الشرقى من مسجد بيت المقدس واستبعده ثم قال : ولعله لا يصح عنهم ﴿ ينادونهم ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل : فماذا يفعلون بعد ضرب السور ومشاهدة العذاب ؟ فقل : ينادى المنافقون والمنافقات المؤمنات

والمؤمنات ﴿ أَلَمْ نَكُنْ ﴾ فى الدنيا ﴿ مَعَكُمْ ﴾ يريدون به موافقتهم لهم فى الظاهر ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ كنتم معنا

تقولون ﴿ وَلَكِنَّكُمْ قَتَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ محتتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالمؤمنين الدوائر

﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ وشككتهم فى أمور الدين ﴿ وَغَرَّكُمْ الْأَمَانُ ﴾ الفارغة التى من جملتها الطمع فى اتسكاس الاسلام ،

وقال ابن عباس : (فنتم أنفسكم) بالشهوات واللذات (وتربصتم) بالتوبة (وارتبتم) قال محبوب الليثي : شكتم في الله (وغرتمكم الاماني) طول الآمال ، وقال أبو سنان : قلتم سيغفر لنا ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي الموت ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ الشيطان قال لكم : إن الله عفو كريم لا يعذبكم *

وعن قتادة كانوا على خدعة من الشيطان والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله تعالى في النار .
وقرأ سماك بن حرب الغرور بالضم ، قال ابن جنى : وهو كقوله : وغركم بالله تعالى الاغترار ، وتقديره على حذف المضاف أي وغركم بالله تعالى سلامة الاغترار (١) ومعناه سلامتكم منه اغتراركم .

﴿ فَأَلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ ﴾ أيها المنافقون ﴿ فِدْيَةٌ ﴾ فداء وهو ما يبذل لحفظ النفس عن النائية والناصب ليوم الفعل المنفي بلا ، وفيه حجة على من منع ذلك ، وقرأ أبو جعفر . والحسن . وابن أبي إسحق . والاعرج . وابن عامر .
وهرون عن أبي عمرو لا تؤخذ بالتاء الفوقية ﴿ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي ظاهراً وباطناً فيغير المخاطبين المنافقين ، ثم الظاهر إن المراد بالفدية ما هو من جنس المال ونحوه ، وجوز أن يراد بها ما يعم الإيمان والتوبة فتدل الآية على أنه لا يقبل إيمانهم وتوبتهم يوم القيامة وفيه بعد ، وفي الحديث إن الله تعالى يقول للكافر : أرايتك لو كان لك أضعاف الدنيا كنت تفتدى بجميع ذلك من عذاب النار ، فيقول : نعم يا رب فيقول الله تبارك وتعالى : فداؤك ما هو أيسر من ذلك وأنت في ظهر أهلك آدم أن لا تشرك بي فأيت إلا الشرك ﴿ مَا أُولَئِكَ إِلَّا فِي سَاءِ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي ناصركم من باب - تحية بينهم ضرب وجيع - والمراد نفي الناصر على البتات بعد نفي أخذ الفدية وخلصهم بها عن العذاب ، ونحوه قولهم : أصيب بكذا فاستنصر الجزع ، ومنه قوله تعالى : (يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمِهلِ) وقال السكبي . والزجاج . والفراء . وأبو عبيدة : أي أولى بكم كما في قول لبيد يصف بقرة وحشية نفرت من صوت الصائد :

فعدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها

أي فعدت كلا جانبيها الخلف والامام تحسب أنه أولى بأن يكون فيه الخوف ، قال الزمخشري : وحقيقة مولاكم هي على هذا محراكم ومقمنكم أي المكان الذي يقال فيه هو أولى بكم كما قيل : هو مثنة للكرم أي مكان لقول القائل : إنه لكرم فأولى نوع من اسم المكان لوحظ فيه معنى أولى إلا أنه مشتق منه كما أن المثنة ليست مشتقة من إن التحقيق ، وفي التفسير الكبير إن قولهم ذلك بيان لحاصل المعنى وليس بتفسير اللفظ لأنه لو كان مولى وأولى بمعنى واحد في اللغة لصح استعمال كل منهما في مكان الآخر وكان يجب أن يصح هذا أولى فلان كما يقال : هذا مولى فلان ولما بطل ذلك علمنا أن الذي قالوه معنى وليس بتفسير ، ثم صرح بأنه أراد بذلك رد استدلال الشريف المرتضى بحديث الغدير من كنت مولاه فعلي مولاه على إمامة الامير كرم الله تعالى وجهه حيث قال : أحد معاني المولى الاولى *

وحمله في الخبر عليه متعين لأن إرادة غيره يجعل الاخبار عبثاً كما إرادة الناصر والصاحب وابن العم ، أو يجعله كذبا كالمعتق والمعتق ولا يخفى على المنصف أنه إن أراد بكونه معنى لا تفسير ما أشار اليه الزمخشري من التحقيق

فهو لا يرد الاستدلال إذ يكفي للمرتضى أن يقول : المولى في الخبر بمعنى المكان الذى يقال فيه أولى إذ يلزم على غيره العبث أو الكذب وإن أراد أن ذلك معنى لازم لما هو تفسير له كأن يكون تفسيره القائم بمصالحكم ونحوه مما يكون ذلك لازماً له ففي رده الاستدلال أيضاً تردد ، وإن أراد شيئاً آخر فنحن لا ندري ما هو - وهو لم يبينه - والحق أنه ولو جعل المولى بمعنى الأولى أو المكان الذى يقال فيه الأولى لا يتم الاستدلال بالخبر على الإمامة التى تدعيها الإمامية للامير كرم الله تعالى وجهه لما بين في موضعه ، وفي التحفة الاثني عشرية ما فيه كفاية لطالب الحق *

وقال ابن عباس أى مصيركم وتحقيقه على ما قاله الامام : إن المولى بمعنى موضع الولي وهو القرب والمعنى هى موضعكم الذى تقربون منه وتصلون اليه ، وأنت تعلم أن الاخبار بذلك بعد الاخبار بأنها مأوهم ليس فيه كثير جدوى على أن وضع اسم المكان للموضع الذى يتصف صاحبه بالمأخذ حال كونه فيه والقرب من النار وصف لأولئك قبل الدخول فيها ولا يحسن وصفهم به بعد الدخول ولو اعتبر مجاز الكون كما لا يخفى ، وجوز بعضهم اعتبار كونه اسم مكان من الولي بمعنى القرب لكن على أن المعنى هى مكان قربكم من الله سبحانه ورضوانه على التهكم بهم ؛ وقيل : أى متوليك أى المتصرفه فيكم كتصرفكم فيما أوجبها واقتضاها في الدنيا من المعاصي والتصرف استعارة للحراق والتعذيب ، وقيل : مشكلة تقديرية ﴿ وَبَسَّ الْمَصِيرُ ١٥ ﴾ أى النار وهى المخصوص بالذم المحذوف لدلالة السياق ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ استئناف لعتاب المؤمنين على الفتور والتكاسل فيما ندبوا اليه والمعاتب على مقاله الزجاج طائفة من المؤمنين وإلا فمنهم من لم يزل خاشعاً منذ أسلم إلى أن ذهب إلى ربه ، ومانقل عن السكلي . ومقاتل أن الآية نزلت في المنافقين فهم المراد بالذين آمنوا بما لا يكاد يصح ، وقد سمعت صدر السورة الكريمة ماروى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه . وأخرج ابن المبارك . وعبدالرزاق . وابن المنذر عن الاعمش قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد ما كان لهم من الجهد فكانهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا فنزلت (ألم يأن) الآية *

وأخرج ابن أبي حاتم . وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن الله تعالى استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال سبحانه : (ألم يأن) الآية ، وفي خبر ابن مردويه عن أنس بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن *

وأخرج عن عائشة قالت : خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على نفر من أصحابه في المسجد وهم يضحكون فسحب رداءه محمراً وجهه فقال : أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم وقد نزل على في ضحككم آية (ألم يأن للذين) الخ ؟ قالوا : يا رسول الله فما كفارة ذلك ؟ قال : تبكون بقدر ما ضحكتم ، وفي خبر أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام قد ظهر فيهم المزاح والضحك فنزلت ، وحديث مسلم ومن معه السابق مقدم على هذه الآثار على ما يقتضيه كلام أهل الحديث ، و (يأن) مضارع أنى الأمر أنياً وأناأ وإناأ بالكسر إذا جاء أنه أى وقته ، أى ألم يجئ وقت أن تخشع قلوبهم لذكره عز وجل *

وقرأ الحسن . وأبو السمال - ألما - بالهمزة ، ولما النافية الجازمة كلم إلا أن فيه أن المنفى متوقع *

وقرأ الحسن يثن مضارع آن أينا بمعنى أتى السابق، وقال أبو العباس : قال قوم : إن يثن أينا الهمزة مقلوبة فيه عن الحاء وأصله حان يحين حيناً وأصل الكلمة من الحين ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي القرآن وهو عطف على ذكر الله فان كان هو المراد به أيضاً فالعطف لتغاير العنوانين نحو * هو الملك القرم وابن الهمام * فانه ذكر وموعظة كما أنه حق نازل من السماء وإلا بأن كان المراد به تذكير الله تعالى إياهم فالعطف لتغاير الذاتين على ما هو الشائع في العطف وكذا إذا أريد به ذكرهم الله تعالى بالمعنى المعروف ، وجوز العطف على الاسم الجليل إذا أريد بالذكر التذكير وهو كما ترى ، وقال الطيبي : يمكن أن يحمل الذكر على القرآن وما نزل من الحق على نزول السكينة معه أي الواردات الإلهية ويعضده ماروينا عن البخاري . ومسلم . والترمذي عن البراء كان رجلاً يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنتين فغشيته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فذكر له ذلك فقال : تلك السكينة تنزل للقرآن *

وفي رواية أقرأ فلان فأنها السكينة تنزل عند القرآن أو للقرآن انتهى ، ولا يخفى بعد ذلك جداً ولعلك تختار حمل الذكر وما نزل على القرءان لما يحس بما بعد من نوع تأييد له ، وفسر الخشوع للقرآن بالانقياد التام لا وأمره ونواهيه والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام من غير توان ولا فتور ، والظاهر أنه اعتبر كون اللام صلة الخشوع ، وجوز كونها للتعليل على أوجه الذكر فالمعنى ألم يأن لهم أن ترق قلوبهم لاجل ذكر الله تعالى وكتابه الحق النازل فيسارعوا إلى الطاعة على أكمل وجوهها ، وفي الآية حض على الخشوع ، وكان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما كما أخرج عنه ابن المنذر إذا تلاها بكى ثم قال : بلى يارب بلى يارب ، وعن الحسن أما والله لقد استبطأهم وهم يقرءون من القرآن أقل مما يقرءون فانظروا في طول ما قرأتم وما ظهر فيكم من الفسق ، وروى السلي عن أحمد بن أبي الحواري قال بينا أنا في بعض طرقات البصرة إذ سمعت صعقة فأقبلت نحوها فرأيت رجلاً قد خر مغشياً عليه فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : كان رجلاً حاضر القلب فسمع آية من كتاب الله فخر مغشياً عليه فقلت : ما هي ؟ فقلت : قوله تعالى : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) فأفاق الرجل عند سماع كلامنا فأشأ يقول :

أما أن للهجران أن يتصرما وللغصن غصن البان أن يتبسما
وللعاشق الصب الذي ذاب وانحى ألم يأن أن يبكي عليه ويرحما
كتبت بهما الشوق بين جوانحي كتاباً حكى نقش الوشى المنمنما

ثم قال : إشكال إشكال إشكال فخر مغشياً عليه فخر كناه فإذا هو ميت ، وعن أبي بكر رضي الله تعالى عنه إن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاءً شديداً فنظر إليهم فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب ، ولعله أراد رضي الله تعالى عنه أن الطراز الأول كان كذلك حتى قست قلوب كثير من الناس ولم يتأسوا بالسابقين وغرضه مدح أولئك القوم بما كان هو ونظراؤه عليه رضي الله تعالى عنهم ، ويحتمل أن يكون قد أراد ما هو الظاهر ، والكلام من باب هضم النفس كقوله رضي الله تعالى عنه : أيقولوني فلست بخيركم ، وقال شيخ الاسلام أبو حفص السهروردي قدس سره : معناه تصلبت وأدمنت سماع القرآن وألفت أنواره فاستغفر به حتى تنغير كما تنغير هؤلاء السامعون انتهى وهو خلاف الظاهر ، وفيه نوع انتقاص للقوم ورمز إلى أن البكاء عند سماع القرآن لا يكون من كامل كإيز عمه بعض جهلة الصوفية القائلين : إن ذلك لا يكون إلا لضعف القلب عن تحمل الواردات الإلهية النورانية ويحل عن ذلك كلام الصديق رضي الله تعالى عنه ، وقرأ غير واحد

من السبعة (وما نزل) بالتشديد، والجحدري، وأبو جعفر، والأعشى، وأبو عمرو في رواية يونس، وعباس عنه (نزل) مبنياً للفعول مشدداً، وعبد الله - أنزل - بهمزة النقل مبنياً للفاعل .

﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أَتَوْا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ (لا) نافية وما بعدها منصوب معطوف على تخشع . وجوز أن تكون ناهية وما بعدها مجزوم بها ويكون ذلك انتقالاً إلى نهى أولئك المؤمنين عن مماثلة أهل الكتاب بعد أن عوتبوا بما سمعت وعلى النفي هو في المعنى نهى أيضاً ، وقرأ أبو بحرية . وأبو حيوة . وابن أبي عجلة . وإسماعيل عن أبي جعفر ، وعن شيبة . ويعقوب . وحمة في رواية عن سليم عنه (ولا تكونوا) بالناء الفوقية على سبيل الالتفات للاعتناء بالتحذير ، وفي (لا) ما تقدم ، والنهي مع الخطاب أظهر منه مع الغيبة . ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أي الأجل بطول أعمارهم وآمالهم ، أو طال أمد ما بينهم وبين أنبيائهم عليهم السلام وبعد العهد بهم ، وقيل : أمد انتظار القيامة والجزاء ، وقيل : أمد انتظار الفتح ، وفرقوا بين الامد والزمان بأن الامد يقال باعتبار الغاية والزمان عام في المبدأ والغاية ، وقرأ ابن كثير في رواية الأمد بتشديد الدال أي الوقت الأطول ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ صلبت فهي كاللحجارة ، أو أشد قسوة ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسَقُونَ ١٦﴾ خارجون عن حدود دينهم رافضون لما في كتابهم بالكلية ، قيل : من فرط القسوة وذكر أنه مأخوذ من كون الجملة حال ، وفيه خفاء والأظهر أنه من السياق ، والمراد بالكتاب الجنس فالموصول يعم اليهود والنصارى وكانوا كلهم في أوائل أمرهم يحول الحق بينهم وبين كثير من شهواتهم وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله تعالى وركت قلوبهم فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة وزالت عنهم الروعة التي كانت يجذبونها عند سماع الكتابين وأحدثوا ما أحدثوا واتبعوا الأهواء وتفرقت بهم السبل ، والقسوة مبدأ الشرور وتنشأ من طول الغفلة عن الله تعالى ، وعن عيسى عليه السلام لا تدثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم فان القلب القاسي بعيد من الله عز وجل ولا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا في ذنوبكم كأنكم عباد والناس رجلان مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا على العافية ومن أحس بقسوة في قلبه فليهرع إلى ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه يرجع إليه حاله كما أشار إليه قوله عز وجل : ﴿إِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فهو تمثيل ذكر استطراداً لأحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ التي من جملتها هذه الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١٧﴾ كي تعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها فتفوزوا بسعادة الدارين .

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ أي المتصدقين والمتصدقات ، وقد قرأ أبي كذلك ، وقرأ ابن كثير . وأبو بكر . والمفضل . وأبان . وأبو عمرو في رواية هرون بتخفيف الصاد من التصديق لا من الصدقة كما في قراءة الجمهور أي الذين صدقوا واللاتي صدق الله عز وجل ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والقراءة الأولى أنسب بقوله تعالى : ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وقيل : الثانية أرجح لأن الإقراض يغني عن ذكر التصديق ، وأنت ستعلم إن شاء الله تعالى فائدته ، وعطف (أقرضوا) على معنى الفعل من المصدقين على ما اختاره أبو علي . والنمخشري لأن ال بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى الفعل فكأنه قيل : إن الذين اصدقوا أم صدقوا على القراءتين (وأقرضوا)

وتعقبه أبو حيان وغيره بأن فيه الفصل بين أجزاء الصلة إذ المعطوف على الصلة صلة بأجنبي وهو المصدقات، وذلك لا يجوز، وقال صاحب التقریب : هو محمول على المعنى كأنه قيل : إن الناس الذين تصدقوا وتصدقن وأقرضوا فهو عطف على الصلة من حيث المعنى بلا فصل ، وتعقب بأنه لا يحصل له إلا إذا قيل : إن الـ الثانية زائدة ثلثا يعطف على صورة جزء الكلمة ، وفيه بعد ، ولا يخفى أن حديث اعتبار المعنى يدفع ما ذكر ، ومن هنا قيل : إنه قريب ولا يبعد تنزيل ما تقدم عن أبي علي ، والزحشرى عليه ، وقيل : العطف على صلة الـ في المصدقات واختلاف الضمائر تأنيثا وتذكيرا لا يضر لأن الـ تصلح للجميع فيراد بها معنى اللاتي عند عود ضمير جمع الإناث عليها ومعنى الذين عند عود ضمير جمع الذكور عليها وهو كما ترى ، ومثله ما قيل : هو من باب كل رجل وضعته أى إن المصدقين مقرنون مع المصدقات في الثواب والمنزلة ، أو يقدر خبر أى - إن المصدقين والمصدقات يفاحون - (وأقرضوا) في الوجهين ليس عطفاً على الصلة بل مستأنف ويضاعف بعد صفة قرضاً أو استئناف ومن أنصف لم ير ذلك مما ينبغى أن يخرج عليه كلام أدنى الفصحاء فضلا عن كلام رب العالمين ، واختار أبو حيان تخريج ذلك على حذف الموصول لدلالة ما قبله عليه كأنه قيل : والذين أقرضوا فيكون مثل قوله : فمن يهجر رسول الله منكم (ويمدحه وينصره) سواء

وهو مقبول على رأى الكوفيين دون رأى البصريين فانهم لا يجوزون حذف الموصول في مثله ، وبعض أئمة المحققين بعد أن استقرب توجيه التقریب ولم يستبعد تنزيل ما سمعت عن الزحشرى . وأبى على عليه قال : وأقرب منه أن يقال : إن (المصدقات) منصوب على التخصيص لأنه قيل : (إن المتصدقين) عاماً على التغليب وأخص المتصدقات منهم كما تقول : إن الذين آمنوا ولا سيما العلماء منهم وعملوا الصالحات لهم كذا * ووجه التخصيص ما ورد في قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « يامعشر النساء تصدقن فإني أريكن أكثر أهل النار » يحضرن على الصدقة بأنهن إذا فعلن ذلك كان له تعالى أقبل وجزاؤه عنه سبحانه أوفر وأفضل ، ثم قال : ولما لم يكن الاقراض غير ذلك التصديق قيل : وأقرضوا أى بذلك التصديق تحقيقا لكينوته وأنهم مثل ذلك ممثلون عند الله تعالى بمن يعامل مع أجود الأجودين معاملة برضاه ، ولو قيل : والمقرضين لفاتت هذه النكتة انتهى * ولا يخفى أن نصب المصدقات على التخصيص خلاف الظاهر ، وأما ما ذكره في نكتة العدول عن المقرضين فحسن وهو متأد على تخريج أبي علي . والزحشرى ، وعلى تخريج أبي حيان ، وقال الخفاجى : القول - أى قول أبي البقاء - بأن أقرضوا الخ معترض بين اسم إن وخبرها أظهر وأسهل ، وكأن النكتة فيه تأكيد الحكم بالمضاعفة ، وزعم أن الجملة حال بتقدير قد أو بدونها من ضميرى المصدقين والمصدقات لا يخفى معنى وعريته فتدبر ﴿ يَضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ الضمير لجميع المتقدمين الذكور والإناث على التغليب كضمير أقرضوا ، والجار والمجرور نائب الفاعل ، وقيل : هو ضمير التصديق أو ضمير القرض على حذف مضاف أى يضاعف ثواب التصديق أو ثواب القرض لهم ، وقرأ ابن كثير . وابن عامر - يضاعف - بتشديد العين ، وقرئ يضاعف بالبناء للفاعل أى يضاعف الله عز وجل لهم ثواب ذلك ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١٨ ﴾ قد مر الكلام فيه * ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ قد بين كيفية إيمانهم في خاتمة سورة البقرة ، والموصول مبتدأ أول ، وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ مبتدأ ثان ، وهو إشارة إلى الموصول وما فيه من معنى البعد لما مر مراراً ، وقوله سبحانه :

((هُم)) مبتدأ ثالث ، وقوله عز وجل : ((الصَّديقُونَ وَالشَّهَدَاءُ)) خبر الثالث ، والجملة خبر الثاني وهو مع خبره خبر الاول أو هم ضمير فصل وما بعده خبر الثاني ، وقوله تعالى : ((عِنْدَ رَبِّهِمْ)) متعلق على ما قيل : بالثبوت الذي تقتضيه الجملة أى أولئك عند ربهم عز وجل وفي حكمه وعلمه سبحانه هم الصديقون والشهداء والمراد أولئك في حكم الله تعالى بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلو الرتبة ورفعة المحل وهم الذين سبقوا إلى التصديق ورسخوا فيه واستشهدوا في سبيل الله جل جلاله وسمى من قتل مجاهداً في سبيله تعالى شهيداً لان الله سبحانه وملائكته عليهم السلام شهود له بالجنة ، وقيل : لانه حتى لم يمت كأنه شاهد أى حاضر ، وقيل : لان ملائكة الرحمة تشهده ، وقيل : لانه شهد ما أعد الله تعالى له من الكرامة ، وقيل : غير ذلك فهو إما فاعيل بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول على اختلاف التأويل ، وقوله تعالى : ((لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ)) خبر ثان للموصول على أنه جملة من مبتدأ وخبر ، أو (لهم) الخبر وما بعده مرتفع به على الفاعلية وضمير (لهم) للموصول ، والضميران الاخيران للصديقين والشهداء ، والغرض بيان ثمرات ما وصفوا به من نعوت الكمال أى أولئك لهم مثل أجر الصديقين والشهداء ونورهم المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال ، وقد حذف أداة التشبيه تنبيهاً على قوة المماثلة وبلوغها حد الاتحاد كما فعل ذلك أولاً حيث قيل : أولئك هم الصديقون والشهداء وليست المماثلة بين الملقب الاول من الأجر والنور . وبين تمام ما للفرقيين الآخرين بل بين تمام ما للأول من الأصل والإضعاف وبين ما للآخرين من الأصل بدون الإضعاف ، فالإضعاف هو الذي امتاز به الفريقان الاخيران على الفريق الاول وقد لا يعتبر تشبيه بليغ في الكلام أصلاً ويبقى على ظاهره والضمائر كلها للموصول أى أولئك هم المبالغون في الصدق حيث آمنوا وصدقوا جميع أخبار الله تعالى وأخبار رسله عليهم الصلاة والسلام والقائمون بالشهادة لله سبحانه بالوحدانية وسائر صفات الكمال ولهم بما يليق بهم من ذلك لهم الأجر والنور الموعودان لهم ، وقال بعضهم : وصفهم بالشهادة لكونهم شهداء على الناس كما نطق به قوله تعالى : (و كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) فعند ربهم متعلق بالشهداء ، والمراد بالشهداء على الناس يوم القيامة ، وجوز تعلقه بالشهداء أيضاً على الوجه الاول على معنى الذين شهدوا مزيد الكرامة بالقتل في سبيل الله تعالى يوم القيامة أو في حظيرة رحمته عز وجل أو نحو ذلك ، ويشهد لكون الشهداء معطوفاً على الصديقين آثار كثيرة .

أخرج ابن جرير عن البراء بن عازب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن مؤمنى أمتى شهداء ، ثم تلا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) ، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنه قال يوماً لقوم عنده : كلكم صديق وشهيد قيل له : ما تقول يا أبا هريرة ؟ قال : اقرءوا (والذين آمنوا بالله ورسله) الآية ، وأخرج عبد الرزاق . وعبد بن حميد عن مجاهد قال : كل مؤمن صديق وشهيد ثم تلا الآية ، وأخرج عبد بن حميد نحوه عن عمرو بن ميمون ، وأخرج ابن جبان عن عمرو بن مرة الجهني قال : « جاء رجل إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله وصليت الصلوات الخمس وأديت الزكاة وصمت رمضان وقته فمن أنا ؟ قال : من الصديقين والشهداء » وينبغي أن يحمل الذين آمنوا على من لهم كمال في ذلك يعتد به ولا يتحقق إلا بفعل طاعات يعتد بها وإلا فيبعد أن يكون المؤمن المنهمك في الشهوات الغافل عن الطاعات صديقاً شهيداً ،

ويستأنس لذلك بما جاء من حديث عمر رضي الله تعالى عنه مالم إذا رأيتم الرجل يخرق أعراض الناس أن لا تعيبوا عليه؟ قالوا : نخاف لسانه قال : ذلك أخرى أن لا تكونوا شهداء ، قال ابن الاثير : أى إذا لم تفعلوا ذلك لم تكونوا في جملة الشهداء الذين يستشهدون يوم القيامة على الامم التي كذبت أنبياءها ، وكذا بقوله عليه الصلاة والسلام : اللعانون لا يكونون شهداء بناءً على أحد قولين فيه . وفي بعض الاخبار ما ظاهره إرادة طائفة من خواص المؤمنين ، أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من فر بدينه من أرض إلى أرض مخافة الفتنة على نفسه ودينه كتب عند الله صديقاً فإذا مات قبضه الله شهيداً وتلاهذه الآية (والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء) ثم قال : هذه فيهم ثم قال : والفزارون بدينهم من أرض إلى أرض يوم القيامة مع عيسى ابن مريم في درجته في الجنة » ويجوز أن يراد من قوله : « هذه فيهم » أنها صادقة عليهم وهم داخلون فيها دخولا أولياً ، ويقال : في قوله عليه الصلاة والسلام : « مع عيسى في درجته » المراد معه في مثل درجته وتوجه المائلة بما مر والخبر إذا صح يؤيد الوجه الأول في الآية . وروى عن الضحاك أنها نزلت في ثمانية نفر سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الاسلام وهم أبو بكر . وعمر . وعثمان . وعلي . وحزمة . وطلحة . والزبير . وسعد . وزيد رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وهذا لا يضر في العموم كما لا يخفى ، وقيل : الشهداء مبتدأ و (عند ربهم) خبره ، وقيل : الخبر (لهم أجرهم) والكلام عليهما قد تم عند قوله تعالى : (الصديقون) ، وأخرج هذا ابن جرير عن ابن عباس . والضحاك قال : (والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون) هذه مفصلة سبهم صديقين ، ثم قال : والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم . وروى جماعة عن مسروق ما يوافقه ، واختلفوا في المراد بالشهداء على هذا ف قيل : الشهداء في سبيل الله تعالى . وحكى ذلك عن مقاتل بن سليمان ، وقيل : الانبياء عليهم السلام الذين يشهدون للامم عليهم ، وحكى ذلك عن مسروق . ومقاتل بن حيان . واختاره الفراء . والزجاج ، وزعم أبو حيان أن الظاهر كون الشهداء مبتدأ وما بعده خبر ، ومن أنصف يعلم أنه ليس كما قال ، وأن الذي تقتضيه جرالة النظم الكريم هو ما تقدم ، ثم النور على جميع الأوجه على حقيقته ، وعن مجاهد . وغيره أنه عبارة عن الهدى والكرامة والبشرى .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) أى بجميعها على اختلاف أنواعها وهو إشارة إلى كفرهم بالرسول عليهم السلام جميعهم (أُولَئِكَ) الموصوفون بتلك الصفة القبيحة ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ بحيث لا يفارقونها أبداً ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ بعدما بين حال الفريقين في الآخرة شرح جال الحياة التي اطمأن بها الفريق الثاني ، وأشير إلى أنها من محقرات الامور التي لا يركن اليها العقلاء فضلا عن الاطمئنان بها بأنها لعب لا ثمرة فيها سوى التعب (ولهو) تشغل الانسان عما يعنيه ويهمه (وزينة) لا يحصل منها شرف ذاتي كالملايس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة (وتفاخر) بالانساب والعظام البالية (وتكاثر) بالعدد والعدد ، وقرأ السلي (وتفاخر بينكم) بالاضافة ، ثم أشير إلى أنها مع ذلك سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال بقوله سبحانه : ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ مطر ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ﴾ أى راقهم ﴿نَبَاتُهُ﴾ أى النبات الحاصل به ، والمراد بالكفار إما الحراث على ما روى عن ابن مسعود لانهم يكفرون أى يسترون

البذر في الارض ووجه تخصيصهم بالذكور ظاهر ، وأما الكافرون بالله سبحانه ووجه تخصيصهم أنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا فإن المؤمن إذا رأى معجباً انتقل فكره إلى قدرة موجد عَزَّ وجل فاعجب بها ، ولذا قال أبو نؤاس في النرجس :

عيون من لجن شاخصات على أطرافها ذهب سبيك
على قضب الزبرجد شاهدات (بأن الله ليس له شريك)

والكافر لا يتخطى فكره عما أحس به فيستغرق إعجاباً (ثم يهيج) يتحرك إلى أقصى ما يتأتى له، وقيل : أي يحف بعد خضرته ونضارته (فترته) يامن تصح منه الرؤية (مصفراً) بعد مارأيته ناضراً موقناً، وقرى مصفراً وإنما لم يقل فيصفّر قيل : إيذاً بأن اصفراره غير مقارن لهيجانه وإنما المترتب عليه رؤيته كذلك ، وقيل : للإشارة إلى ظهور ذلك لكل أحد (ثم يكون خطماً) هشياً متكسراً من اليبس، ومحل الكاف قيل : النصب على الحالية من الضمير في (لعب) لأنه في معنى الوصف، وقيل : الرفع على أنه خبر بعد خبر للحياة الدنيا بتقدير المضاف إليه أي مثل الحياة كمثل النخ، ولتضمن ذلك تشبيه جميع ما فيها من السنين الكثيرة بمدة نبات غيث واحد يفنى ويضمحل في أقل من سنة جاءت الإشارة إلى سرعة زوالها وقرب اضمحلها ، وبعد ما بين حقارة أمر الدنيا تزهداً فيها وتنفيراً عن العكوف عليها أشير إلى غفلة شأن الآخرة وعظم ما فيها من اللذات والآلام ترغيباً في تحصيل نعيمها المقيم وتحذيراً من عذابها الأليم ، وقدم سبحانه ذكر العذاب فقال جل وعلا :

(وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ) لأنه من نتائج الانهماك فيما فصل من أحوال الحياة الدنيا (ومَغْفَرَةٌ) عظيمة (من الله ورضوان) عظيم لا يقادر قدره ، وفي مقابلة العذاب الشديد بشيئين إشارة إلى غلبة الرحمة وأنه من باب « لن يغلب عسر يسرين » *

وفي ترك وصف العذاب بكونه من الله تعالى مع وصف ما بعده بذلك إشارة إلى غلبتها أيضاً ورمز إلى أن الخير هو المقصود بالقصد الأولى (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ٢٠) لمن اطمأن بها ولم يجعلها ذريعة للآخرة ومطية لنعيمها ، روى عن سعيد بن جبير الدنيا متاع الغرور إن أهلك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعيتك إلى طلب رضوان الله تعالى وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ) أي سارعوا مسارعة السابقين لأقراهم في المضمار إلى أسباب مغفرة عظيمة كائنة (من ربكم) والكلام على الاستغارة أو المجاز المرسل واستعمال اللفظ في لازم معناه وإنما لزم ذلك لأن اللازم أن يبادر من يعمل ما يكون سبباً للمغفرة ودخول الجنة لا أن يعمل أو يتصف بذلك سابقاً على آخر ، وقيل : المراد سابقوا ملك الموت قبل أن يقطعكم بالموت عن الأعمال الموصلة لما ذكره ، وقيل : سابقوا إبليس قبل أن يصدكم بغرووه وخداعه عن ذلك وهو كما ترى * والمراد بتلك الأسباب الأعمال الصالحة على اختلاف أنواعها ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال في الآية : كن أول داخل المسجد وآخر خارج ، وقال عبد الله : كونوا في أول صف القتال ، وقال أنس : اشهدوا تكبيرة الاحرام مع الامام وكل ذلك من باب التمثيل ، واستدل بهذا الأمر على أن الصلاة بأول وقتها أفضل من التأخير (وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) أي كعرضها جميعاً لو ألصق أحدهما بالآخر وإذا

كان العرض وهو أقصر الامتدادين موصوفاً بالسعة دل على سعة الطول بالطريق الاولى فالإقتصار عليه أبدأ من ذكر الطول معه ، وقيل: المراد بالعرض البسطة ولذا وصف به الدعاء ونحوه بماليس من ذوى الابعاد وتقدم قول آخر في تفسير نظير الآية من سورة آل عمران وتقديم المغفرة على الجنة لتقدم التخليّة على التحلية .

﴿ أَعَدْتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أى هيئت لهم ، واستدل بذلك على أن الجنة موجودة الآن لقوله تعالى (أعدت) بصيغة الماضي والتأويل خلاف الظاهر ، وقد صرح بخلافه في الأحاديث الصحيحة وتام الكلام في علم الكلام ، وعلى أن الايمان وحده كاف في استحقاق الجنة لذكره وحده فيما في حيز ما يشعر بعله الإعداد وإدخال العمل في الايمان المعتدى بالبلاء غير مسلم كذا قالوا ، ومتى أريد بالذين آمنوا المذكورين من لهم درجة في الايمان يعتد بها ، وقيل : بأنها لا تحصل بدون الأعمال الصالحة على ما سمعته منا قريباً اتخذ الاستدلال الثانى في الجملة كلاً لا يخفى ، وذكر النيسابورى في وجه التعبير هنا بسابقوا وفى آية آل عمران - يسارعوا - وبالسما هنا وبالسماوات هناك - وبكعرض - هنا - وبعرض - بدون أداة تشبيه ثم كلاماً مبنيّاً على أن المراد بالمتقير

هناك السابقون المقربون ، وبالذين آمنوا هنا من هم دون أولئك حالا فتأمل ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى الذى وع من المغفرة والجنة ﴿ فَضْلُ اللَّهِ ﴾ عطاؤه الغير الواجب عليه ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ إيتاءه ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ فلا يبعد منه عز وجل الفضل بذلك على من يشاء وإن عظم قدره ، فالجملة تذييل لإثبات ما ذيل بها .
﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ أى نائبة أى نائبة وأصلها فى الرمية وهى من أصاب السهم إذا وصل إلى المرمى بالصواب ثم خصت بها .

وزعم بعضهم أنها لغة عامة فى الشر والخير وعرفا خاصة بالشر ، (ومن) مزيدة للتأكيد ، وأصاب ج فى الشر كما هنا ، وفى الخير كقوله تعالى : (ولئن أصابكم فضل من الله) وذكر بعضهم أنه يستعمل فى الخير اعتبار بالصوب أى بالمطر وفى الشر اعتباراً بإصابة السهم ، وكلاهما يرجعان إلى أصل وتذكير الفعل فى مثل ذلك جائز كتأنيته ، وعليه قوله تعالى : (ما تسبق من أمة أجلها) والكلام على العموم لجميع الشرور أى مصيبة أى مصيبة ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ كجذب وعاهة فى الزرع والثمار وزلزلة وغيرها ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ كمرض وآفة كالجر

والكسر ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ أى إلا مكتوبة مثبتة فى اللوح المحفوظ ، وقيل : فى علم الله عز وجل .
﴿ مَنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ أى نخلقها ، والضمير على ما روى عن ابن عباس . وقتادة . والحسن . وجماعة للأنفس
وقيل : للأرض ، واستظهر أبو حيان كونه للمصيبة لأنها هى المحدث عنها ، وذكر الأرض والأنفس إتماماً على سبيل ذكر محلها ، وذكر المهدوى جواز عوده على جميع ما ذكر ، وقال جماعة : يعود على المخلوقات وإلا لم يجر لها ذكر ، وقيل : المراد بالمصيبة هنا الحوادث من خير وشر وهو خلاف الظاهر من استعمال المصبا
إلا أن فيما بعد نوع تأييده وأياً ما كان فى الأرض متعلق بمحذوف مرفوع أو مجرور صفة لمصيبة على الموضع أو على اللفظ ، وجوز أن يكون ظرفاً لأصاب أو للمصيبة ، قيل : وإنما قيدت المصيبة بكونها فى الأرض والأنفس لأن الحوادث المطلقة كلها ليست مكتوبة فى اللوح لأنها غير متناهية ، واللوح متناه وهو لا يكون

ظرفا لغير المتناهي ولذا جاء « جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة » وفي الآية تخصيص آخر وهو أنه سبحانه لم يذكر أحوال أهل السموات لعدم تعلق الغرض بذلك مع قلة المصائب في أهلها بل لا يكاد يصيبهم سوى مصيبة الموت ، وما ذكره في وجه التخصيص الأول لا يتم إذا أريد بالكتاب علمه سبحانه ، وقيل : بأن كتابة الحوادث فيه على نحو كتابتها في القرآن العظيم بناءً على ما يقولون : إنه مامن شيء إلا ويذكر استخراجه منه حتى أسماء الملوك ومددهم وما يقع منهم ولو قيل في وجهه - إن الأوفق بما تقدم من شرح حال الحياة الدنيا إنما هو ذكر المصائب الدنيوية فلذا خصت بالذكر - لكان تاماً مطلقاً ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أى إثباتها في كتاب ﴿ عَلَى اللَّهِ ﴾ لا غيره سبحانه ﴿ يَسِيرٌ ٢٢ ﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العدة والمدة ، وإن أريد بذلك تحققها في علمه جل شأنه فيسره لأنه من مقتضيات ذاته عز وجل ، وفي الآية رد على هشام بن الحكم الزاعم أنه سبحانه لا يعلم الحوادث قبل وقوعها ، وفي الإكليل إن فيها رداً على القدرية ، وجاء ذلك في خبر مرفوع ، أخرج الديلمي عن سليمان بن جابر الجهيمي قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « سيفتح على أمي باب من القدر في آخر الزمان لا يستدئى شيء يكفيكم منه أن تلقوه بهذه الآية ما أصاب من مصيبة » الآية .

وأخرج الإمام أحمد . والحاكم وصححه عن أبي حسان أن رجلين دخلا على عائشة رضي الله تعالى عنها فقالا : « إن أبا هريرة يحدث أن نبي الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول : إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار فقالت : والذي أنزل القرآن على أبي القاسم صلى الله تعالى عليه وسلم ما هكذا كان يقول ، ولكن كان رسول الله ﷺ يقول : كان أهل الجاهلية يقولون : إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار ، ثم قرأت (ما أصاب من مصيبة) الآية ﴿ لَكَيْلًا تَأْسُوا ﴾ أى أخبرناكم بذلك لئلا تحزنوا ﴿ عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ من نعم الدنيا ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى أعطاكموه الله تعالى منها فإن من علم أن الكل مقدر يفوت ما قدر فواته ويأتي ما قدر إتيانه لا محالة لا يعظم جزعه على ما فات ولا فرحه بما هوآت ، وعلم كون الكل مقدرأ مع أن المذكور سابقاً المصائب دون النعم وغيرها لأنه لا قائل بالفرق وليس في النظم الكريم اكتفاء كما توهم ، نعم إن حملت المصيبة على الحوادث من خير وشر كان أمر العلم أوضح كما لا يخفى وترك التعادل بين الفعلين في الصلتين حيث لم يسندا إلى شيء واحد بل أسندا الأول إلى ضمير الموصول والثاني إلى ضميره تعالى لان الفوات والعدم ذاتي للاشياء فلو خليت ونفسها لم تبق بخلاف حصولها وبقائها فانه لا بد من استنادهما إليه عز وجل كما حقق في موضعه ، وعليه قول الشاعر :

فلا تتبع الماضي سؤالك لم مضى وعرج على الباقي وسائله لم بقى

ومثل هذه القراءة قراءة عبد الله - أوتيتم - مبنياً للمفعول أى أعطيتم ، وقرأ أبو عمرو - أتاكم - من الاتيان أى جاءكم وعليها بين الفعلين تعادل ، والمراد نفى الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاء ثواب الصابرين ونفى الفرح المطفئ للملهى عن الشكر ، وأما الحزن الذي لا يكاد الانسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله تعالى والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما •

أخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال في الآية : ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ولكن من أصابته مصيبة جعلها صبراً ومن أصابه خير جعله شكراً ، وقوله تعالى :

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ٣٢﴾ تذييل يفيد أن الفرح المذموم هو الموجب للبطل والاختيال والمختال المتكبر عن تخيل فضيلة تراات له من نفسه، والفخور المباهى في الاشياء الخارجة عن المرء كالمال والجاه * وذكر بعضهم أن الاختيال في الفعل والفخر فيه وفي غيره، والمراد من لا يحب يبغض إذ لا واسطة بين الحب والبغض في حقه عز وجل وأولا بالاثابة والتعذيب، ومذهب السلف ترك التأويل مع التنزيه، ومن لا يحب كل مختال لا يحب كل فرد فرد من ذلك لأنه لا يحب البعض دون البعض ويرد بذلك على الشيخ عبد القاهر في قوله: إذا تأملنا وجدنا إدخال كل في حيز النفي لا يصلح إلا حيث يراد أن بعضاً كان وبعضاً لم يكن، نعم إن هذا الحكم أكثرى لا كلى، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بدل من (كل مختال) بدل كل من كل فإن المختال بالمال يضن به غالباً ويأمر غيره بذلك، والظاهر أن المراد أنهم يأمرؤن حقيقة، وقيل: كانوا قدوة فكأنهم يأمرؤن أو هو خبر مبتدأ محذوف أى هم الذين الخ، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره يعرضون عن الاتفاق الغنى عنه الله عز وجل، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ٣٤﴾ فإن معناه ومن يعرض عن الاتفاق فإن الله سبحانه غنى عنه وعن إنفاقه محمود في ذاته لا يضره الاعراض عن شكره بالتقرب إليه بشئ من نعمه جل جلاله، وقيل: تقديره مستغنى عنهم، أو موعودون بالعذاب أو مذمومون، وجوز أن يكون في موضع نصب على إضمار أعنى أو على أنه نعت - لكل مختال - فانه مخصص نوعاً مامن التخصيص فساغ وصفه بالمعرفة وهذا ليس بشئ، وقال ابن عطية بجواز مثل ذلك مذهب الأخفش ولا يخفى ما في الجملة من الاشعار بالتهديد لمن تولى، وقرأ نافع وابن عامر - فان الله الغنى - بإسقاط - هو - وكذا في مصاحف المدينة والشام وهو في القراءة الأخرى ضمير فصل، قال أبو علي: ولا يحسن أن يكون مبتدأ وإلا لم لم يحذف في القراءة الثانية لأن ما بعده صالح لأن يكون خبراً فلا يكون هناك دليل على الحذف وهذا مبنى على وجوب توافق القراءتين إعراباً وليس بلام ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أى من بنى آدم كما هو الظاهر ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى الحجج والمعجزات ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أى جنس الكتاب الشامل للكل، والظرف حال مقدرة منه على ما قال أبو حيان، وقيل: مقارنة بتنزيل الاتصال منزلة المقارنة ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ الآلة المعروفة بين الناس كما قال ابن زيد وغيره، وإنزاله إنزال أسبابه، ولو بعيدة، وأمر الناس باتخاذها مع تعليم كيفية * ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ علة لأنزال الكتاب والميزان والقيام بالقسط أى بالعدل يشمل التسوية في أمور التعامل باستعمال الميزان، وفي أمور المعاد باحتذاء الكتاب وهو لفظ جامع مشتمل على جميع ما ينبغي الاتصاف به معاشاً ومعاداً * ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ قال الحسن: أى خلقناه كقوله تعالى: (وأنزّل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وهو تفسر بلام الشيء فان كل مخلوق منزل باعتبار ثبوته في اللوح وتقديره موجوداً حيث ما ثبت فيه * وقال قطرب: هيأناه لكم وأنعمنا به عليكم من نزل الضيف ﴿فيه بأسٌ﴾ أى عذاب ﴿شديدٌ﴾ لأن آلات الحرب تتخذ منه، وهذا إشارة إلى احتياج الكتاب والميزان إلى القائم بالسيف ليحصل القيام بالقسط فان الظلم من شيم النفوس، وقوله تعالى: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أى في معاشهم ومصالحهم إذ مامن صنعة إلا

والحديد أو ما يعمل به آلتها للايماء إلى أن القيام بالقسط كما يحتاج إلى الوازع وهو القائم بالسيف يحتاج إلى ما به قوام التعايش ، ومن يقوم بذلك أيضا ليمتد التمدن المحتاج إليه النوع ، ولتتم القيام بالقسط ، كيف وهو شامل أيضاً لما يخص المرء وحده ، والجملة الظرفية في موضع الحال ، وقوله سبحانه :

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُولَهُ ﴾ عطف على محذوف يدل عليه السياق أو الحال لأنها متضمنة للتعليل أي لينفعهم وليعلم الله تعالى علماً يتعلق به الجزاء من ينصره ورسوله باستعمال آلات الحرب من الحديد في مجاهدة أعدائه والحذف للاشعار بأن الثاني هو المطلوب لذاته وأن الأول مقدمة له ، وجوز تعلقه بمحذوف مؤخر والواو اعتراضية أي وليعلم الخ أنزله أو مقدم والواو عاطفة والجملة معطوفة على ما قبلها وقد حذف المعطوف وأقيم متعلقه مقامه ، وقوله تعالى : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ حال من فاعل ينصر ، أو من مفعوله أي غائباً منهم أو غائبين منه ، وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢٥ ﴾ اعتراض تذييلي جئ به تحقيقاً للحق وتنبهاً على أن تكليفهم الجهاد وتعريضهم للقتال ليس لحاجته سبحانه في إعلاء كلمته وإظهار دينه إلى نصرته بل إنما هو لينتفعوا به ويصلوا بامثال الأمر فيه إلى الثواب وإلا فهو جل وعلا غني بقدرته وعزته عنهم في كل ما يريد . هذا وذهب الزمخشري إلى أن المراد بالرسول الملائكة عليهم السلام أي أرسلناهم إلى الأنبياء عليهم السلام ، وفسر - البيئات - فإفسرنا بناءً على الملائكة ترسل بالمعجزات كإرسالها بالحجج لتخبر بأنهم معجزات وإلا فكان الظاهر الاقتصار على الحجج وإنزال الكتاب أي الوحي مع أولئك الرسل ظاهر ، وإنزال الميزان بمعنى الآلة عنده على حقيقة ، قال : روى أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام ، وقال : «مر قومك يزنوا به ، وفسره كثير بالعدل ، وعن ابن عباس في إنزال الحديد نزل مع آدم عليه السلام الميعة والسندان والكلبتان ، وروى أنه نزل ومعه الميز والمسحاة ، وقيل : نزل ومعه خمسة أشياء من الحديد السندان والكلبتان والابرة والمطرقة والميعة ، وفسرت بالسنن ، وتجيئ بمعنى المطرقة أو العظيمة منها ، وقيل : ماتحت به الرحي ، وفي حديث ابن عباس نزل آدم عليه السلام من الجنة بالبأسنة وهي آلات الصناعات ، وقيل : سكة الحرث وليس بعربي محض والله تعالى أعلم .

واستظهر أبو حيان كون - ليقوم الناس بالقسط - علة لإنزال الميزان فقط وجوز ما ذكرناه وهو الأولى فيما أرى ، وقوله تعالى . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا) وتكرير القسم لظاهر مزيد الاعتناء بالأمر أي وبالله لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم . ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتب ، وقال ابن عباس : الكتاب الخط بالقلم ، وفي مصحف عبد الله - والنبية - مكتوبة بالياء عوض الواو ﴿ قَنُوهُمْ ﴾ أي من الذرية ؛ وقيل : أي من المرسل إليهم المدلول عليهم بذكر الأرسال والمرسلين ﴿ مَهْتَدٌ ﴾ وكثير منهم فاسقون ٣٦ ﴿ خَارِجُونَ ﴾ عن الطريق المستقيم ، ولم يقل - ومنهم - ضال مع أنه أظهر في المقابلة لأن ما عليه النظم الكريم أبلغ في الذم لأن الخروج عن الطريق المستقيم بعد الوصول بالتمكن منه ، ومعرفة أبلغ من الضلال عنه ولا يذانه بغلبة أهل الضلال على غيرهم ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا ﴾ أي أرسلنا بعدهم رسولا بعد رسول ، وأصل التقفية جعل

الشيء خلف القفا، وضمير آثارهم لنوح وإبراهيم ومن أرسلنا اليهم من قومهما . وقيل : لمن عاصرهما من الرسل عليهم السلام *

واعترض بأنه لو عاصر رسول نوحاً فيما أن يرسل إلى قومه كهرون مع موسى عليهما السلام أو إلى غيرهم بطوط مع إبراهيم عليهما السلام ولا مجال للاول لمخالفته للواقع ولا إلى الثاني إذ ليس على الارض قوم غيره ، وأجيب بأن ذلك توجيه لجمع الضمير وكون لوط مع إبراهيم كاف فيه ، وقيل : للذرية ، وفيه أن الرسل المقفي بهم من الذرية فلو عاد الضمير عليهم لزم أنهم غيرهم أو اتحاد المقفي والمقفي به وتخصيص الذرية مرجع الضمير بالاول من منهم خلاف الظاهر من غير قرينة تدل عليه ﴿ وَقَفَيْنَا بِعَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ جعلناه بعده

وحاصل المعنى أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى الارسال إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴾ بأن أو حيناه اليه وليس هو الذي بين أيدي النصارى اليوم أعنى المشتغل على قصة ولادته وقصة صلبه المفتراة؛ وقرأ الحسن (الإنجيل) بفتح الهمزة، قال أبو الفتح : وهو مثال لا نظير له ، قال الزنجشري : وأمره أهون من أمر البرطيل بفتح الباء والكسر أشهر وهو حجر مستطيل واستعماله في الرشوة مولد مأخوذ منه بنوع تجوز لأنه عجمي وهذا عربي وهم يتلاعبون بالعجمي ولا يلتزمون فيه أوزانهم ، وزعم بعض أن لفظ الإنجيل عربي من نجلت بمعنى استخرجت لاستخراج الاحكام منه ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أى خلقنا أو صيرنا - ففي قلوب - في موضع المفعول الثاني وأيا ما كان فالمراد جعلنا ذلك في قلوبهم فهم يرأف بعضهم ببعض ويرحم بعضهم بعضاً ، ونظيره في شأن أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم (رحماء بينهم) والراقة في المشهور الرحمة لكن قال بعض الافاضل : إنها إذا ذكرت معها يراد بالراقة مافيه درء الشر ورأب الصدع ، وبالرحمة مافيه جلب الخير ولذا ترى في الاغلب تقديم الراقة على الرحمة وذلك لأن درء المفساد أهم من جلب المصالح وقرئ رآقة على فعالة كشجاعة ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ منصوب بفعل مضمير يفسره الظاهر أى وابتدعوا رهبانية *

﴿ اَبْتَدَعُوهَا ﴾ فهو من باب الاشتغال ، واعترض بأنه يشترط فيه - كما قال ابن الشجرى . وأبو حيان - أن يكون الاسم السابق محتصاً بحوز وقوعه مبتدأ والمذكور نكرة لا مسوغ لها من مسوغات الابتداء ، وردبأنه على فرض تسليم هذا الشرط الاسم هنا موصوف معنى بما يؤخذ من تنوين التعظيم كما قيل في قولهم : شر أهر ذا ناب وما يدل عليه من النسبة كما ستسمعه إن شاء الله تعالى أو منصوب بالعطف على ما قبل ، وجملة (ابتدعوها) في موضع الصفة والكلام على حذف مضاف أى وجعلنا في قلوبهم رآقة ورحمة وحب رهبانية مبتدعة لهم ، وبعضهم جعله معطوفاً على ما ذكر ولم يتعرض للحذف ، وقال : الرهبانية من أفعال العباد لأنها المبالغة في العبادة بالرياضة والانتقطاع عن الناس ، وأصل معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخائف فعلان من رهب كخشيان من خشى ، وأفعال العباد يتعاقبها جعل الله تعالى عند أهل الحق وهى في عين كونها مخلوقة له تعالى مكتسبة للعبد ، والزنجشري جوز العطف المذكور وفسر الجعل بالتوفيق كأنه قيل : وقفناهم للتراحم بينهم ولا بتداع الرهبانية واستحداثها بناءً على مذهبه أن الرهبانية فعل العبد المخلوق له باختياره، وفائدة (في قلوب) على هذا التصوير على ما قيل ، ولا يخفى مافى هذا التفسير من العدول عن الظاهر لكن الانصاف أنه لا يحسن العطف بدون هذا

تأويل أو اعتبار حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه على ما تقدم أو تفسير الرهبانية بما هو من أفعال القلوب الخوف المفرط المقتضى للغلو في التعبد ويرتكب نوع تجوز في ابتدعوها وما بعده كأن يكون المراد ابتداع عملها وآثارها أو ارتكاب استخدام في الكلام بأن يعتبر للرهبانية معنيان الخوف المفرط مثلاً، ويراد في جعلنا في قلوبهم رهبانية والاعمال التعبدية الشاقة كرفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهن، ويراد في ابتدعوها وما بعده وليس الداعي للتأويل الاعتزال بل كون الرهبانية بمعنى الاعمال البدنية ليست مما يجعل القلب كالرأفة والرحمة فتأمل *

وقرئ (رهبانية) بضم الراء وهي منسوبة إلى الرهبان بالضم وهو يقال الراغب: يكون واحداً وجمعاً فالنسبة إليه باعتبار كونه واحداً ومن ظن اختصاص المضموم بالجمع قال: إنه لما اختص بطائفة مخصوصة أعطى حكم لعلم فسبته إليه يقالوا في أنصار وأنصارى أو أن النسبة إلى رهبان المفتوح وضم الراء في المنسوب من تغييرات النسب كما في دهرى بضم الدال، وقوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ جملة مستأنفة، وقوله سبحانه:

﴿إِلَّا ابْتَغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع أى ما فرضاها نحن عليهم رأساً ولكن ابتدعوها وألزموا أنفسهم بها ابتغاء رضوان الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾ أى ما حافظوا عليها حق المحافظة ذم لهم من حيث أن ذلك كالنذر وهو عهد مع الله تعالى يجب رعايته لاسيما إذا قصد به رضاه عز وجل.

واستدل بذلك على أن من اعتاد تطوعاً كره له تركه، وجوز أن يكون قوله تعالى: (ما كتبناها) الخ صفة أخرى لرهبانية والنفي متوجه إلى قيد الفعل لانفسه كما في الوجه الأول، وقوله سبحانه: (إلا ابتغاء) الخ استثناء متصل من أعم العلل أى ما قضيناها عليهم بأن جعلناهم يبتدعونها الشيء من الأشياء إلا ليتفوتوا بها رضوان الله تعالى ويستحقوا بها الثواب، ومن ضرورة ذلك أن يحافظوا عليها ويراعوها حق رعايتها فارعوها كذلك والوجه الأول مروى عن قتادة. وجماعة، وهناروى عن مجاهد ولا يخالفه عليه بين (ابتدعوها) و (ما كتبناها عليهم) الخ حيث أن الأول يقتضى أنهم لم يؤمروا بها أصلاً والثاني يقتضى أنهم أمروا بها لا بتفاد رضوان الله تعالى لما أشرنا إليه من معنى (ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء) الخ، ودفع بعضهم المخالفة بأن يقال: الأمر وقع بعد ابتداعها أو يؤل ابتدعوها بأنهم أول من فعلها بعد الأمر ويؤيد مذكره في النسخ أو لا ما أخرجه أبو بلود وأبو يعلى. والضياء عن أنس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فان قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ما ابتدعوها ما كتبناها عليهم» يعنى الآية، والظاهر أن ضمير فارعوها لأولئك الذين ابتدعوا الرهبانية، والمراد نفي وقوع الرعاية من كلهم على أن المعنى فما رعاها كلهم بل بعضهم، وليس المراد بالموصول فيما سبق أشخاصاً بأعيانهم بل المراد به ما يعم النصارى إلى زمان الاسلام ولا يضر في ذلك أن أصل الابتداع كان من قوم مخصوصين لأن إسناده على نحو الاسناد في - بنو تميم قتلوا زيدا - والقاتل بعضهم *

وقال الضحاك. وغيره: الضمير في (فما رعوها) للاخلاف الذين جاءوا بعد المبتدعين والاول أوفق بالصناعة، والمراد بالذين آمنوا في قوله تعالى: ﴿فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ﴾ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً وهو لمن أدرك وقت النبي صلى الله عليه وسلم الايمان به عليه الصلاة والسلام أى فاتينا الذين آمنوا منهم

إيماناً صحيحاً بعد رعاية رهبانيتهم ﴿أَجْرُهُمْ﴾ أى ما يختص بهم من الأجر وهو الأجر على ماسلف منهم والاجر على الايمان به عليه الصلاة والسلام ، وليس المراد بهم الذين بقوا على رعاية الرهبانية إلى زمان البعثة ولم يؤمنوا لأن رعايتها لغو محض وكفر بحت وإنما لها استتباع الاجر ، ويجوز أن يقال : إن الذين لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها هم الذين كذبوه عليه الصلاة والسلام ، قال الزجاج : قوله تعالى : (فما رعوها حق رعايتها) على ضربين : أحدهما أن يكونوا قصرُوا فيما ألزموه أنفسهم ، والآخر وهو الأجود أن يكونوا حين بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يؤمنوا فكانوا تاركين لطاعة الله تعالى فما رعوا تلك الرهبانية ، ودليل ذلك قوله تعالى : (فأتينا الذين آمنوا منهم) الخ انتهى ، فحمل الذين آمنوا على من أدرك وقته عليه الصلاة والسلام منهم وآمن به صلى الله تعالى عليه وسلم والفاسقين في قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ٣٧ ﴾ على الذين لم يؤمنوا به صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومقتضى حمل الذين آمنوا على ما سمعت أولاً حمله على الاعم الشامل لمن خرج عن اتباع عيسى عليه السلام من قبل وحمل الفريقين على من مضى من المراعين لحقوق الرهبانية قبل النسخ والمخلين بها إذ ذاك بالتثليث والقول بالاتحاد وقصد السمعة ونحو ذلك من غير تعرض لإيمانهم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكفرهم به بما لا يساعده المقام .

وفى الآثار ما ياباه فى حديث طويل أخرجه جماعة منهم الحاكم وصححه . والبيهقى فى شعب الايمان من طرق عن ابن مسعود « اختلف من كان قبلنا على ثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرهما فرقة وازت الملوك وقتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك فأقاموا بين ظهرائى قومهم فدعواهم إلى دين الله ودين عيسى فقتلتهم الملوك ونشرت بهم المناشر ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بالمقام معهم فباحوا فى الجبال وترهبوا فيها وهم الذين قال الله : (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فأتينا الذين آمنوا منهم أجراً) الذين آمنوا بى وصدقونى (وكثير منهم فاسقون) الذين حجدوا بى وكفروا بى » وهذا الخبر يؤيد ما استجوده الزجاج ، ويعلم منه أيضاً سبب ابتداء الرهبانية وليس فى الآية ما يدل على ذم البدعة مطلقاً ، والذى تدل عليه ظاهراً ذم عدم رعاية ما ألزموه ، وتفصيل الكلام فى البدعة ما ذكره الامام محي الدين النووى فى شرح صحيح مسلم . قال العلماء : البدعة خمسة أقسام واجبة ومندوبة ومحرومة ومكروهة . ومباحة (١) فمن الواجبة تعلم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعين وشبه ذلك ، ومن المندوبة تصنيف كتب العلم وبناء المدارس والربط وغير ذلك ، ومن المباحة التبسط فى ألوان الاطعمة وغير ذلك ، والحرام والمكروه ظاهراً ، فعلم أن قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « كل بدعة ضلالة » من العام المخصوص .

وقال صاحب الاصول : الابتداء من المخلوقين إن كان فى خلاف ما أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فهو فى حيز الذم والانكار وإن كان واقعا تحت عموم مآندب الله تعالى اليه وحض عليه أو رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فهو فى حيز المدح وإن لم يكن مثاله موجوداً كنوع من الجود والسخاء

(١) هذا التقسيم لا يصح أن يكون للبدع بالمعنى الشرعى إذ ما ذكره دل عليه الكتاب والسنة وإنما يصح للبدع بالمعنى اللغوى وقد أشبع الكلام على ذلك صاحب الاعتصام فراجع اه لإدارة الطباعة المنيرية

وفعل المعروف ، ويعضد ذلك قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في صلاة التراويح : نعمت البدعة هذه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ استظهر أبو حيان كون الخطاب لمن آمن من أمته صلى الله تعالى عليه وسلم غير أهل الكتاب والآثار تؤيد ذلك ، أخرج الطبراني في الاوسط عن ابن عباس ، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قالا : إن أربعين من أصحاب النجاشي قدموا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فشهدوا معه أحداً فكانت فيهم جراحات ولم يقتل منهم أحد فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا : يا رسول الله إنا أهل ميسرة فأذن لنا نجي بأموالنا نواسي بها المسلمين فأنزل الله تعالى فيهم (الذي آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) إلى قوله سبحانه : (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) فجعل لهم أجرين فلما نزلت هذه الآية قالوا : يا معشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كآجوركم فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) الآية أي أي راداً عليهم قولهم : ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كآجوركم .

وفي الكشف إن قائل ذلك من لم يكن آمن من أهل الكتاب قالوه حين سمعوا تلك الآية يفخرون به على المسلمين ، والمعنى يا أيها الذين اتصفوا بالايان ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ اثبتوا على تقواه عز وجل فيما نهاكم عنه . ﴿ وَآمَنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ واثبتوا على الايمان برسوله الذي أرسله اليكم وهو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفي التعبير عنه بذلك ما لا يخفى من الدلالة على جلالة قدره عليه الصلاة والسلام ﴿ يُوْتِكُمْ ﴾ بسبب ذلك .

﴿ كَفَلْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ قال أبو موسى الأشعري : ضعفين بلسان الحبشة ، وقال غير واحد : نصيبين ، والمراد إيتاؤهم أجرين ثموني أهل الكتاب كأنه قيل : يوتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الأجرين لأنكم مثلهم في الايمان بالرسول المتقدمين وبخاتمهم صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم أجمعين لا تفرقون بين أحد من رسله . وقال الراغب : الكفل الحظ الذي فيه الكفاية كأنه تكفل بأمره ، والكفلان هما المرغوب فيهما بقوله تعالى : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) ولا دلالة على التخصيص .

﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يوم القيامة وهو النور المذكور في قوله تعالى : (يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ما سلف منكم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢٨ ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة فلا بدع إذا فعل سبحانه ما فعل ، وقوله تعالى : ﴿ لَّا يَلْعَلْ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ قيل : متعلق بمضمون الجملة الطلية المتضمنة لمعنى الشرط إذ التقدير إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يوتكم كذا وكذا لئلا الخ ، وقيل : متعلق بالأفعال الثلاثة قبله على التنازع ، أو بمقدر كفعل ذلك وأعلمهم ونحوه و (لا) مزيدة مثلها في قوله تعالى : (ما منعك أن لا تسجد) ويجوز زيادتها مع القرينة كثيراً و (أن) مخففة من الثقيلة واسمها المحذوف ضمير أهل الكتاب أي أنهم ، وقيل : ضمير الشأن وما بعد خبرها والجملة في خبر النصب على أنها مفعول يعلم أي يعلم أهل الكتاب القائلون من آمن بكتابكم منا فله أجران ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كآجوركم أنهم لا ينالون شيئاً من فضل الله من الأجرين وغيرهما ولا يتمكنون من نيله مالم يؤمنوا بمحمد ﷺ وحاصله الإعلام بأن إيمانهم بنبيهم لا ينفهم شيئاً مالم يؤمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام فقولهم : من لم يؤمن بكتابكم فله أجر باطل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : لما نزلت (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : لنا أجران ولكم أجر فاشتد ذلك على أصحابه عليه الصلاة والسلام فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) الخ فجعل لهم سبحانه أجرين مثل ما لم يؤمنوا أهل الكتاب ، وقال الثعلبي : فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) الآية فجعل لهم أجرين وزادهم النور ثم قال سبحانه : (لئلا يعلم) الخ ، وحاصله على هذا ليعلموا أنهم ليسوا ملاك فضله عز وجل فيزوه عن المؤمنين ويستبدوا به دونهم ، وقوله تعالى : (وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ) عطف على أن لا يقدرين داخل معه في حيز العلم ، وقوله سبحانه : (يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ) خبر ثان لأن أو هو الخبر وما قبله على ما قيل : حال لازمة أو استئناف ، وقوله عز وجل : (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ٢٩) اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله * .

وذهب بعض إلى أن الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب اليهود والنصارى أول من لم يؤمن منهم بعد ، فالمعنى يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام آمنوا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم أي اثبتوا على الإيمان به أو أحدثوا الإيمان به عليه الصلاة والسلام يؤتكم نصيبين من رحمته نصيباً على إيمانكم بمن آمنتم به أولاً ونصيباً على إيمانكم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم آخر أليعلم الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب أنهم لا ينالون شيئاً مما يناله المؤمنون منهم ولا يتمكنون من نيله حيث لم يأتوا بشرطه الذي هو الإيمان برسوله ﷺ ، وأيد ذلك بما في صحيح البخاري « من كانت له أمة عليها فأحسن تعليمها وأديها فأحسن تأديتها وأعتقها وتزوجها فله أجران ، وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنيه وآمن بي فله أجران ، وأيما مملوك أدى حق الله تعالى وحق مواليه فله أجران » ولا إشكال في ذلك بالنسبة إلى النصارى ، ولذا قيل : الخطاب لهم لأن ملتهم غير منسوخة قبل ظهور الملة المحمدية ومعرفتهم بها فيثابون على العمل بها حتى يجب عليهم الإيمان بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فإذا آمنوا أثبتوا أيضاً فكان لهم ثوابان ، نعم قد يستشكل بالنسبة إلى غيرهم لأن ملتهم منسوخة بملة عيسى عليه السلام والمنسوخ لا ثواب في العمل به ، ويحاجب بانه لا يبعد أن يثابوا على العمل بملتهم السابقة وإن كانت منسوخة ببركة الاسلام * .

وأجاب بعضهم أن الإثابة على نفس إيمان ذلك الكتابي بنيه وإن كان منسوخ الشريعة فإن الإيمان بكل نبي فرض سواء كان منسوخ الشريعة أم لا ، وقيل : إن (لا) في (لأن لا يعلم) غير مزيدة وضمير لا يقدرين للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين أي فعلنا ما فعلنا لئلا يعتقد أهل الكتاب أن الشأن لا يقدر النبي ﷺ والمؤمنون به على شيء من فضل الله تعالى الذي هو عبارة عما أوتوه من سعادة الدارين ولا ينالونه ، أو أنهم أي النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنون لا يقدرين الخ ، على أن عدم عليهم بعدم قدرتهم على ذلك كناية عن علمهم بقدرتهم عليه فيكون قوله سبحانه : (وَأَنَّ الْفَضْلَ) الخ معطوفاً على - أن لا يعلم - داخل معه في حيز التعليل دون أن لا يقدر فكأنه قيل : فعلنا ما فعلنا لئلا يعتقدوا كذا ولأن الفضل بيد الله فيكون من عطف الغاية على الغاية بناءً على المشهور ولتكلف هذا القليل مع مخالفته لبعض القراءات لم يذهب إليه معظم المفسرين ، وقرأ خطاب بن عبد الله - لأن لا يعلم - بالاظهار ، وعبد الله بن مسعود . وابن عباس . وعكرمة . والجحدري . وعبد الله بن سلمة على اختلاف ليعلم ، وقرأ الجحدري أيضاً - وليعلم - على أن أصله لئن يعلم فقلبت الهمزة ياءاً

لكسرة ما قبلها وأدغمت النون في الياء بغير غنة ، وروى ابن مجاهد عن الحسن - ليلا - مثل ليلى اسم المرأة (يعلم) بالرفع ، ووجه بأن أصله - لأن لا - بفتح لام الجر وهي لغة وعليه قوله :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سيل

فحذفت الهمزة اعتباطاً وأدغمت النون في اللام فصار - للا - فاجتمعت الامثال وثقل النطق بهافاً بدلوا من اللام المدغمة ياءً نظير ما فعلوا في قيراط ودينار حيث أن الاصل قراط ودينار فأبدلوا أحد المثلين فيهما ياءً للتخفيف فصار - ليلا - ورفع الفعل لأن أن هي المخففة من الثقيلة لا الناصبة للمضارع ، وروى قطرب عن الحسن أيضاً - ليلا - بكسر اللام ووجهه كالذي قبله إلا أن كسر اللام على اللغة الشهيرة في لام الجر ؛ وعن ابن عباس كي يعلم ، وعنه أيضاً لكيلا يعلم ، وعن عبد الله . وابن جبير . وعكرمة لكي يعلم .
وقرأ عبد الله أن لا يقدرُوا بحذف النون على أن إن هي الناصبة للمضارع ، والله تعالى أعلم .

((وما ذكره المتصوفة قدست أسرارهم في بعض آياتها)) (هو الاول والآخر والظاهر والباطن) قالوا : هو إشارة إلى وحدانية ذاته سبحانه المحيطة بالكل ، وقالوا في قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) إشارة إلى أنهم لا وجود لهم في جميع مراتبهم بدون وجوده عز وجل ، وقوله تعالى : (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) إشارة إلى ظهور تجلي الجلال في تجلي الجمال وبالعكس (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) إشارة للمشايخ الكاملين إلى تربية المريدين بافاضة ما يقوى استعدادهم مما جعلهم الله تعالى متمكنين فيه من الاحوال والمسالك .
وقال سبحانه : (اعلموا أن الله يحيي الارض بعد موتها) لئلا يقنط القاسي من رحمته تعالى ويترك الاشتغال بمداواة القلب الميت (فارعوها حق رعايتها) أو ردها الصوفية في باب الرعاية وقسموها إلى رعاية الاعمال والاحوال والافاق - ويرجع ما قالوه فيها - على ما قيل - إلى حفظها عن إيقاع خلل فيها (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته) أي نصيين نصيياً من معارف الصفات الفعلية ونصييماً من معارف الصفات الذاتية (ويجعل لكم نوراً) من نور ذاته عز وجل وهو على ما قيل : إشارة إلى البقاء بعد الفناء ، وقيل : هذا النور إشارة إلى نور الكشف والمشاهدة رتب سبحانه جعله للمؤمن على تقواه وإيمانه برسوله الاعظم صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل : هو نور العلم النافع الذي يتمكن معه من السير في الحضرات الالهية كما يشير اليه وصفه بقوله عز وجل : (تمشون به) ؛ وفي بعض الآثار « من عمل بما علم الله تعالى علم ما لم يعلم » وقال سبحانه : (اتقوا الله ويعلمكم الله) وكل ذلك في الحقيقة فضل الله تعالى والله عز وجل ذو الفضل العظيم نسأله سبحانه أن لا يحرمنا من فضله العظيم ولطفه العيم وأن يثبتنا على متابعة حبيبه الكريم عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل التسليم .

تم بعونه تعالى وتوفيقه الجزء السابع والعشرون ، يليه الجزء الثامن والعشرون أوله ﴿﴾

﴿ سورة المجادلة ﴾